الفصل الثامن

روسو المنبوذ

٦٧ — ١٧٦٢

١ — الهـــروب

عجيب أن يفلت من الرقيب كتاب يحوى ما حوى إميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية ، وأن يطبع فى فرنسا . ولكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف . وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء النشيط . ولكن روسو رفض . ولقد نجا زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفى وراء أسماء مستعارة ، أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه .

وبينما ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة ، أدانه أحبار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروقا من المسيحية . وأعد رئيس أساقفة باريس ، عدو الجنسنين ، للنشر فى أغسطس ١٧٦٢ رسالة قوية تهاجم الكتاب . وكان برلمان باريس المناصر للجنسنين مشغولا بطرد اليسوعيين ، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدى غيرته على الكاثوليكية ، وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربته دفاعا عن الكنيسة . واقترح مجلس الدولة الذى كان يخوض حربا مع البرلمان . ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة ، أن يلقى القبض على روسو . فلما نمى الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فورا عن فرنسا . وفى ٨ يونيو بعثت إليه مدام دكريكى رسالة تشى بانفعالها . قالت : لاريب فى أن أمراً صدر بالقبض عليك . فاستحلفك بالله أن تهرب . . . إن حمق كتابك ان يضيرك أما شخصك فلا يطيق السجن . فاستشر جيرانك [1] .

أما الجيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج . وقد خشيا أن يتورطا فى الأمر لو قبض على روسو [٢] ، فحثاه هما وأمير كونتى على الهروب إلى سويسرة ، وأعطوه مبلغا من المال وعربة ليعبر بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسره . وأذعن روسو على مضض . وترك تريز فى رعاية المرشالة . وبرح مونمورنى فى ٩ يونيو . فى ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نفذ ببطء رحيم ، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب . وفى ذلك اليوم ذاته قال الأستاذ أومير جولى دفلورى لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل :

« يبدو أن هذا العمل ألف لهدف واحد هو رد كل شىء إلى الدين الطبيعى ، وتطوير ذلك النظام الإجرامى فى خطة المؤلف لتربية تلميذه ...

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوى فى الخير ، وعلى أنها كلها منبعثة من مناخ الناس ، وحكومتهم وطبعهم . . وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبؤات ، ويقينية المعجزات الواردة فى الأسفار المقدسة . وعصمة الوحى ، وسلطان الكنيسة . . وهو يسخر من الدين المسيحى ويجدف عليه . ذلك الدين الذى هو وحده من صنع الله .

ومؤلف هذا الكتاب الذى جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع مايمكن . ومن الأهمية بمكان ، أن تجعل العدالة — من المؤلف وأولئك الذين . . ه شاركوا فى طبع هذا الكتاب وتوزيعه — مثلا وعبرة للناس بكل صرامة » .

ومن ثم فقد أمر البرلمان :

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق فى فناء القصر (قصر العدالة)أسفل السلم الكبير ، بيد كبير الجلادين ، وعلى كل الذين يملكون نسخا من الكتاب أن يسلموها إلى المسجل لإبادتها ، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه ، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقا لنص القانون الصارم ، ويجب القبض على ج — ج روسو وزجه فى سجن الكونسيرجرى فى قصر العدالة[٣] .

وفى ١١ يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرة . أمرت الحوذى أن يقف لحظة دخولى إقليم برن وخرجت من مركبتى ، وخررت على وجهى ، وقبلت الأرض وصحت فى غمرة فرحى :

« حمدا لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إننى ألمس أرضاً للحرية [٤]. »

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان . فواصل ركوبه إلى إيفردون ، قرب الطرف الجنوبى لبحيرة نوشاتل ، فى مقاطعة برن ، وهناك مكث شهرا مع صديقه القديم روجان . أيبحث عن منزل فى جنيف ؟ ولكن فى ١٩ يونيو أدان مجلس الخمسة والعشرين الذى يحكم جنيف كلا من « إميل » و« العقد الاجتماعى» لأنهما خارجان على التقوى ، فاضحان ، وقحان ، مفعمان بالتجاديف والافتراءات على الدين . وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل مامن شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحى المنزل ، ويهزها ويهدمها . . . ويتعاظم خطر الكتابين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التى لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء ، منشوران باسم مواطن جنيفى [٥] .

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين ، وحرم بيعهما ، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوما ما أرض الجمهورية . ولم يعترض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء . ولا ريب فى أنهم شعروا بأن أى عطف يبدونه لمؤلف « إعلان بإيمان كاهن سافوى » ، سيؤكد ماكشفه دالامبير عما يبطنونه من ميول للتوحيد ، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذى ظل صديقا له سنين كثيرة ، وطالب بأن يسحب روسو أقواله . يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف « لو سرت بين الجماهير أى شائعة عنى لأضرت بى ، وقد عاملنى كل مروجى الشائعات والمتفيقهين كأننى تلميذ يهدد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الدينى [٦] .

وتأثر فولتير من موقف غريمه ، فلقد قرأ إميل ، وتعليقاته مازالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف . وفى خطاب مؤرخ ١٥ يونيو كتب عن الكتاب « إنه خليط تهرف به مرضعة بلهاء فى أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة ضد المسيحية من أجرأ ما عرفنا . . . وهويقول فى الفلاسفه من الأشياء الموذية قدر ما يقوله فى المسيح ، ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحا من القساوسة(٧) . على أية حال أعجبه « إعلان الإيمان » فقال عنه خمسون صفحة كاملة ، ولكنه أضاف « من المؤسف أن يكون كاتبها . . . وغدا كهذا(٨). وكتب إلى مدام دودفان سأحب مؤلف كاهن سافوى، مهما فعل ومهما يفعل(٩) . . ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح « فليأت إلى هنا (إلى قريته) . . يجب أن يأتى . سأستقبله بذراعين مفتوحتين . سيكون هنا سيداً أكثر منى . سأعامله كأنه ابنى(١٠)». وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة ، ولابد أنها وصلت إلى أحدها ، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها(١١) . وفى ١٧٦٣ جدد فولتير الدعوة ، فرفضها روسو ، واتهم فولتير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة « العقد الاجتماعى » و « إميل» . . ولكن فولتير أنكر التهمة ، وبحق فيما يبدو .

وفى بواكير يوليو ١٧٦٢ أخطر مجلس شيوخ برن روسو بأنه لايستطيع السماح بوجوده فى اقليم برن ، وأن عليه أن يرحل عنه فى بحر خمسة عشر يوما وإلا واجه السجن . وتلقى خلال ذلك خطابا رقيقا من دالامبير ينصحه بأن يحاول الاقامة فى إمارة نوشاتل ، وكانت تقع فى قضاء فردريك الأكبر ، ويحكمها ايرل ماريشال جورج كيث ، الذى قال عنه دالامبير إنه سيستقبلك ويعاملك كما كان الآباء فى العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة(١٢) . وتردد روسو ، لأنه كان قد انتقد فردريك زاعما أنه طاغية فى ثياب فيلسوف(١٣) . ومع ذلك قبل فى ١٠ يوليو ١٧٦٢ دعوة ابنة أخى روجان ، مدام دلاتور ، بأن ينزل بيتا تملكه موتييه — ترافير ، على خمسة عشر ميلا جنوب شرق مدينة نوشاتل فى بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد برى بديع تحيط به الجبال الشاهقة(١٤). وحوالى ١١ يوليو تقدم جان — جاك بالتماس إلى الحاكم ، وبما تميز به من تواضع وإباء . كتب إلى : (ملك بروسيا) .

« لقد قلت فيك الكثير من السوء ، وأغلب الظن أنى قائل فيك المزيد منه ؛ ولكننى وأنا مطارد من فرنسا ومن جنيف ، ومن مقاطعة برن ، جئت ألتمس ملجأ فى ولاياتك . . . سيدى ، لم أستحق منك فضلا ، ولا أطلب فضلا ، ولكننى أحسست بأن من واجبى أن أصرح لجلالتك بأننى فى قبضتك ، وانى شئت أن أكون كذلك ، لجلالتك أن تتصرف معى كما تشاء » .

وكتب فردريك إلى كيث فى تاريخ غير مؤكد ، وهو لم يفرغ بعد من حرب السنين السبع :

« يجب أن ننقذ هذا الشقى المسكين . فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة نحسبها سديدة ، سأرسل إليك مائة كروان ، فتفضل باعطائه منها ما يحتاج اليه . وأظنه سيقبلها عينا بأسهل مما يقبلها نقدا ، ولولا أننا نخوض حرباً ، ولولا أننا أفلسنا ، لبنيت له كوخا بحديقة حيث يستطيع العيش كما عاش فى ظنى أباؤنا الأولون . . . . أظن أن روسو المسكين قد اختار المهنة الخطأ ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكا مشهورا ، وأبا من آباء البرية يشتهر بنسكه وجلده لجسده . ختاما أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحش يعدل عدم منطقية عقله[١٥] » .

أما المريشال ، الذى يقول روسو إنه قديس بخيل ، عجوز ، شارد الذهن ، فقد أرسل اليه الزاد والفحم والخشب ، واقترح أن يبنى له بيتاً صغيراً . وفسر جان — جاك هذا العرض بأنه آت من فردريك ، فرفضه ، « ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهتم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة[١٦] . وفى أول نوفمبر ، والحرب قاب قوسين من نهايتها ، كتب إلى فردريك يصف مهام السلم :

« مولاى :

أنت حامى وولى نعمتى ، وان لى لقلبا خلق ليعرف الجميل، وأريد أن أبرىء نفسى معك ان استطعت . تريد أن تعطينى الخبز ، أفايسن بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعد عن عينى ذلك السيف الذى يومض ويجرحنى ... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة ، وأنت لاتزال بعيدا عن ساعة منيتك ، ولكن الوقت كالسيف ، وليس أمامك لحظة واحدة تضيعها . أو تستطيع ان تعتزم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة .

ولوأتيح لى يوما أن أرى فردريك العادل المرهوب يملأ بلاده فى نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أباً له ، إذن لذهب جان — جاك روسو علو الملوك ، ليموت فرحا فى أسفل عرشه[١٧] ».

ولم يرد فردريك ردا وصل إلينا علمه ، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو[١٨].

وحين خيل لجان — جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه ، أرسل إلى تريز لتلحق به . ولم يكن واثقا من أنها ستأتى ، لأنه أحس قبل ذلك بزمن طويل بفتور محبتها له ، وعزا هذا إلى توقفه عن الاتصال الجنسى بها ، لأن «الاتصال بالنساء كان يؤذى صحتى[١٩]» . فلعلها الآن تؤثر باريس على سويسرة . ولكنها حضرت . وكان لقاء ذرفا فيه الدموع ، وتطلعا أخيرا إلى بضع سنين ينعمان فيها بالسلام .

٢ — روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشق مالقيا . ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفنين أدانوا روسو علانية بالهرطقة ، وحظر القضاة بيع إميل . » واستأذن روسو راعى الكنيسة فى موتييه فى أن ينضم إلى شعب كنيسته ، ربما ليهدىء ثائرة القساوسة ، أو مدفوعا برغبة صادقة فى اتباع مبادىء كاهن سافوى، (أما تريز فظلت كاثوليكية) ، فقبل . واختلف إلى الكنيسة للصلاة ، وتناول القربان « بعاطفة من القلب ، وعيناى تملؤهما دموع الحنان[٢٠]. » وأعطى الساخرين منه سلاحا باتخاذه الزى الأرمنى — قلنسوة من فراء ،

وقفطان ، وحزام . وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذى ابتلى به . وكان يختلف إلى الكنيسة فى هذا الزى ، وارتداه وهو يزور اللورد كيث ، الذى لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم) . وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى ، ثم أضاف إليها الآن أشغال الأبرة ، وتعلم صناعة الدنتلا . كنت أحمل كالنساء مخدتى فى زياراتى ، أو اجلس لأشتغل بالأبرة عند باب بيتى . . وأتاح لى هذا أن انفق وقتى مع جاراتى دون أن أحس مللا . . (٢١)

وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه فى هذه الفترة (أواخر ١٧٦٢) بأن يبدأ كتابه « اعترافات » وكان قد أقسم أن يعتزل التأليف ، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ماهو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم ، لا سيما ضد تهم جماعة الفلاسفة وشائعات الصالونات . أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل . وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد ، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة ، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين ، ولم يرين فى « كاهن سافوى » وصانعه عدوا حقيقياً للدين ، بل المدافع الشجاع عنه ضد إلحاد يشيع الكآبة فى النفوس . لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين ، غدا اب الاعتراف ، ومرشداً للنفوس والضمائر . وقد نصحهم بأن يقيموا على دين شبابهم أو يعودوا إليه ، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التى يوحى بها العلم والفلسفة . فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هى الجوهر ، ولا ضير فى تنحيتها فى صمت ، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالخلود ، فبهذا الإيمان والرجاء يستطيع الإنسان أن يتسامى فوق كل كوارث الطبيعة التى لا تفهم ، وكل آلام الحياة وأحزانها . وطلب كاثوليكى شاب متمرد على دينه تعاطف روسو ، فأجابه روسو ناسياً تمرداته ألا يهتم كثيرا بالتوافه العارضة . « لو أننى ولدت كاثوليكيا لظللت كاثوليكيا ، علما بأن كنيستك تضع قيداً صحياً على شطحات العقل البشرى الذى لايجد قرارا ولاشاطئاً حين يريد سبر أعماق الأشياء السحيقة(٢٢) » . وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

بالهروب من المدينة إلى الريف ، ومن التكلف والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة ، والرضا الهادىء بالزواج والأبوة .

وأحبت النساء اللاتى صدمهن القساوسة المتعلقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون ، هذا المهرطق الزاهد الذى نددت به جميع الكنائس ، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل . فقالت مدام دبلو ، النبيلة المحترمة ، لجماعة من النبلاء والنبيلات ، « مامن شيء يمنع امرأة ذات حس مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمي ضروب العفة ، لو كانت واثقة من أنه سيحبها حبا حارا [٢٣]. وحسبت مدام دلاتور بعض ماجاء فى خطاباته لها من مجاملات اعترافاً بالحب ، فاستجابت برقة وحرارة وتدفق وبعثت إليه بصورتها ، مؤكدة أنها لا تنصفها . وابتأست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط [٢٤]. إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التى يمشى عليها ، وأقامت بعضهن مذابح له فى قلوبهن ، ودعاه بعضهن المسيح المولود من جديد . وكان يصدقهن أحياناً ، ورأى فى نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد [٢٥] .

وسط هذا التمجيد كله ، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الميكل) — كأنما لتأكيد القياس — ليدينوه ثائر خطرا . فى ٢٠ أغسطس ١٧٦٢ أصدر كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، رسالة لجميع الكهنة فى أسقفيته ليقرءوا على شعبهم ، ويعلنوا على الملأ ، اتهامه لإميل ذا التسع والعشرين صفحة . وكان رجلا صارم العقيدة طاهر السمعة ، حارب الجانسنيين والموسوعية والفلاسفة ؛ وبدا له الآن أن روسو ، بعد ماظهر من انفصاله عن الملحدين ، قد انضم إليهم فى مهاجمة الإيمان الذى يرتكز عليه نظام رأى رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعى كله وحياتها الأخلاقية بأسرها.

واستهل اتهامه بالاستشهاد بما جاء فى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس :

« ستأتى أزمنة صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم . . متعظمين ،

مستكبرين ، مجدفين ، . غير طائعين لوالديهم متصلفين ، محبين للذات ، دون محبة الله ... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون(٢٦) .

وهاهى قد جاءت تلك الأزمنة مافى ذلك شك :

« إن الكفر الذى تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار ، والأشخاص والطبقات . . . فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعوبا ، ومن هنا الحكايات الكثيرة التى تستوى بذاءة وزندقة (رويات فولتير) ، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب . وقد يدعى الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهرا بعمق آرائه وسموها ، ويزعم له سندا إليها، لكى يخلع نيراً يقولون إنه يجلل البشر بالعار. وقد يعلو صوته كأنه امرأة غضبى فيهاجم الغيرة الدينية ، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة . وقد يمزج الجد بالهزل فى جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة ، ويخلط الحكم بالفحش ، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة ، والإيمان بالتجديف ، ويأخذ على عاتقه — باختصار — التوفيق بين النور والظلمة ، وبين المسيح وبليعال »(٢٧) .

وقال رئيس الأساقفه أن هذه الطريقة لجأ اليها إميل بصفة خاصة ، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً ، وطفح بنتف من المعرفة لم تثر المؤلف ، وكل ما تفعله أنها تربك قرءاه لامحالة . أنه رجل مولع بمفارقات الآراء والسلوك ، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر ، بين الحكم القديمة وجنون التجديد ؛ وبين احتجاب عزلته ورغبته فى أن تعرفه الدنيا بأسرها . إنه يندد بالعلوم ، ثم يصادقها . إنه يمتدح روعة الانجيل ، ثم يدمر تعاليمه . لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنسانى ليخدعه ، ومرشدا للشعب ليضل العالم ، ونبياً للقرن ليهدمه ، فيالها من مغامرة (٢٨) .

وهال رئيس الأساقفة ما اقترحه روسو من إغفال ذكر الله أو الدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثامنة عشرة ، فمعنى هذا أن « الطبيعة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق . . وأن كل تعليم خلقى سيفقد مساندة الإيمان الدينى . ولكن الإنسان ليس بطبيعته خـــيراً كما زعم المؤلف . فهو يولد ملوثا بالخطيئة الأصلية ، وهو يشارك فى افساد البشرية العام . والمعلم الحكيم — وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية — ينوسل بكل وسيلة سليمة ليغذى دوافع الخير فى الناس ، ويقتلع دوافع الشر ، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحى ، لكى ينمو نحو الخلاص . . وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابدا مخلصاً للإله الحق ، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء [٢٩] . وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد ، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه . إن سيلا عرما من الشر يغرقا فى هذه الحالة[٣٠]» .

وقال رئيس الأساقفة فى ختام كلامه إنه لهذه الأسباب :

« بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم ، وبعد التضرع لإسم الله القدوس ، ندين هذا الكتاب لأنه يحوى تعليما بغيضا من شأنه أن يقلب القانون الطبيعى وأسس الدين المسيحى ، وأن يرسى مبادىء تناقض تعليم الأناجيل الخلقى ، وينحو إلى تكدير سلام الدول ، وتزعم الثورة على سلطان الملك ، ولأنه يتضمن الكثير جدا من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالحقد على الكنيسة ورعاتها . . لذلك نحظر صراحة على جميع الأشخاص فى أسقفيتنا أن يقرأوا الكتاب المذكور أو يقتنوه ، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب[٣١] . »

وطبع هذه الرسالة « بامتياز الملك » وسرعان ما وصلت إلى موتيه — ترافير . وقرر روسو أن يرد عليها ، وهو الذى كان على الدوام مصمما على الكف عن الكتابة . وقبل أن يضع قلمه (١٨ نوفمبر ١٧٦٢) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد ١٢٨ صفحة ، وطبع بامستردام فى مارس ١٧٦٣ ، بهذا العنوان : « من جان — جاك روسو المواطن الجنيفى إلى كرستوف ديمومون رئيس أساقفة باريس » . وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف . ورد روسو على الهجوم الذى شنه عليه مذهبا أوربا الكبيران

بالهجوم عليهما جميعا . وراح الرومانسى الخجول الذى نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرر الآن حججهم بجرأة مستهترة .

واستهل رده بسؤال مازال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض فى هذا الجدل الذى لاينتهى . « لم يتحتم على أن أقول أى شىء لك يا صاحب النيافة ؟ وأى لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها ، وكيف نستطيع أن يفهم الواحد منا الآخر[٣٢] ؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتباً على الاطلاق ، وهو لم يفعل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين ، وقد جره إلى هذه الغلطة أنه لاحظ مصادفة ذلك « السؤال التعس » الذى وجهته أكاديمية ديجون ، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم ، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد . . . فألفيتنى ، إن جاز التعبير ، أغدو مؤلفا فى سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة . . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختفت الراحة والأصدقاء[٣٣] » . وزعم أنه فى حياته كلها كان :

« أكثر حماسة منى استفادة . . ولكنى كنت مخلصاً فى كل شىء . . بسيطا طيعا ، وإن كنت مرهف الحس ضعيفا ، أفعل الشر كثيرا وأحب الخير دائماً . . أتبع عواطفى أكثر من مصالحى . . أخشى الله دون أن أخشى الجحيم .. أجادل فى الدين ولكن دون إباحية . لاأحب الكفر ولاالتعصب ، ولكنى أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحدين . . وأعترف بأخطائى لأصدقائى واعلن آرائى للعالم كله[٣٤] » .

وأحزنته إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزنته إدانة الكلفنيين . فهو الذى كان يعتز بلقبه « مواطنا جنيفيا » هرب من فرنسا أملا فى أن يتنفس فى مسقط رأسه نسيم الحرية ، وأن يجد فيه من الترحيب ما يعزيه عما لقى من اذلال كثير . أما الآن « فماذا أقول ؟ إن قلبى ينفلق ، ويدى ترتعد ، والقلم يسقط منها ، وعلى أن أصمت . . ويجب أن اجتر فى الخفاء أشد أحزانى مرارة [٣٥] . فهاهو الرجل الذى اجترأ فى قرن اشتهر بالفسلقة ، والعقل والإنسانية ، على أن يدافع عن قضية الله ، ها هو قد وسم ، وحرم وطورد من بلد إلى بلد ، ومن ملجأ إلى ملجأ ، دون اكتراث لفقره ، ولارحمة

لأمراضه » ثم وجد ملاذا آخر الأمر عند « ملك مستنير ذائع الصيت » وأنزوى فى قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرة ، ظانا أنه فى النهاية ، واجد العزلة والهدوء ، ولكن طاردته حتى هناك لعنات الكهنة .. أن رئيس الأساقفة هذا ، « الرجل الفاضل ، النبيل النفس ، الكريم المحتد » ، كان ينبغى أن يوبخ هؤلاء المضطهدين ، ولكنه بدلا من هذا أصدر لهم الأذن فى غير خجل ، « وهو الذى كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين[٣٦] ..

وأحس روسو أن أشد ماساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون اخيار ، أو غير أشرار على الأقل ، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقا ، ولو لم يكن الإنسان ملوثا منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء ، لسقط التعليم بكفارة المسيح ، وهذا التعليم لب العقيدة المسيحية . ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح فى أى مكان من الكتاب المقدس. وقد إدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الأقتراح بتاحيل تعليم الدين ، فرد بأن تربية الأطفال على أيدى الراهبات والقساوسة لم تقلـــل من الخطيئة أو الجريمة ، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم ، ويؤثرون لذة صغيرة حاضرة على الجنة التى وعدوا بها . ثم ما بال هؤلاء القساوسة انفسهم — أتراهم نماذج للفضيلة فى فرنسا المعاصرة[٣٧] ؟ ومع ذلك « فأنا مسيحى ، مسيحى بأخلاص ، طبقاً لتعليم الأنجيل ، لا مسيحى متلمذ للقساوسة ، بل تلميذ للمسيح » . ثم أضاف روسو وعينيه على جنيف « إنى فى سعادتى بالولادة فى أقدس وإعقل دين فى الأرض ، مازلت متعلقاً تعاقا لا أنفه ام فيه بأيمان آبائى . وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة لأيمانى[٣٨] ... وأحس بلوم من أخبروه بأنه « مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر ، فأنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو » .

« ذلك ما يتصايحون به على من كل جانب ، ولعله ما كنت أنت نفسك قائله لى لو كنا وحيدين فى مكتبك . هكذا الناس ، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم ، ولا يقولون الحق إلا وهم فى أروابهم ، أما فى ثيابهم التى

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا . وهم ليسوا مخادعين غشاشين أمام وجوه البشر فحسب ، بل إنهم لا يخجلون من أن يعاقبوا كل من يأبون أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثلهم ، مخالفين فى ذلك ضمائرهم[٣٩].

وهذا الخلاف بين ما نؤمن به وما نبشر به هو سر الفساد فى الحضارة العصرية . أن هناك تحيزات ينبغى أن نحترمها ، على ألا تحيل التربية إلى خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع[٤٠] . فإذا أصبحت هذه التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها ؟

« لست أقول ، ولا أرى ، أن الدين الحسن لا وجود له ... ولكن الذى أقوله . . . . أنه ما من دين من الأديان التى سادت لم يشحن الإنسانية بالجراح . وكل المذاهب عذب بعضها بعضا ، وكلها قدم لله قربان الدم البشرى . وأيا كان مبعث هذه التناقضات فهى قائمة ، فهل من الأجرام الرغبة فى إزالتها[٤١] ؟

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المتيم بكتابه ، وتساءل لم لم يقم لمؤلفه تمثال .

« هبنى أرتكبت بعض الأخطاء ، لا بل كنت دائما مخطئا ، أفلاشفاعة لكتاب يشعر المرء فى كل جزء فيه — حتى فى أغلاطه وحتى فى الضرر الذى قد يكون فيه — بالحب الصادق للخير وبالغيرة على الحق ؟ . . كتاب لا يشع غير السلام ، واللطف ، والصبر ، وحب النظام ، وطاعة القوانين فى كل شىء ، حتى فى أمر الدين . كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيدا رائعا ، وتحترم فيه مكارم الأخلاق احتراما كبيرا . . . . ويصور الشر فيه على أنه حماقة ، والفضيلة على أنها شىء محبب للنفوس . . . أجل ، إنى لا اخشى أن أقولها . . فلو أن فى أوربا حكومة واحدة مستنيرة حقا . . لخلعت على مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية ، ولأقامت له تمثالا . .. ولكن خبرتى الكبيرة بالبشر تمنعنى من أن أتوقع تقديرا كهذا وأنا لم أعرفهم معرفة تكفى لأن أتوقع ذلك الذى أتوه » .

ولكنهم أقاموا له التماثيل .

٣ — روسو والكلفنيون

لم يبتهج بخطاب روسو الذى وجهه إلى كرستوف بومون غير بعض أحرار الفكر فى فرنسا وبعض المتمردين السياسيين فى سويسرة . وجاءت من البروتستنت معظم الردود « المفندة » لدعاوى روسو والموجهة إلى المؤلف . ورأى قساوسة جنيف الكلفنيون فى الخطاب هجوما على المعجزات وتنزيل الكتاب المقدس ، والإغضاء عن هـــذه الهرطقات معناه التمهيد من جديد للخطر الذى عرضهم له دالامبير . وغضب روسو من إحجام الأحرار الجنيفيين عن الجهر بالدفاع عنه ، فارسل (١٢ مايو ١٧٦٣) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواطنته .

وقد حظى عمله هذا ببعض التأييد المسموع . ففى ١٨ يونيو رفع وفد إلى الرئيس الأول للجمهورية « إحتجاجا غاية فى التواضع والاحترام من مواطنى جنيف وسكان مدنها » شكا فيما شكا من مظالم ، من أن الحكم الصادر على روسو غير قانونى ، وأن مصادرة نسخ إميل من مكتبات جنيف كانت عدوانا على حقوق الملكية . ورفض مجلس الخمسة والعشرين الأحتجاج . وفى سبتمبر أصدر المدعى العام ، جان روبير ترونشان (ابن عم طبيب فولتير) ، خطابات مكتوبة من الريف « للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها . وناشد « المحتجون » روسو الرد على ترونشانى . وإذ لم يكن بروسو أى نية فى البعـــد عن الشر ، فقد نشر (ديسمبر ١٧٦٤) تسعة « خطابات مكتوبة من الجبل » — وهى رد من بيته الجبلى على أوليجاركية السهل الجنيفى . وكان ساخطاً أشد السخط على القساوسة والمجلس جميعا ، فهاجم الكلفنية كما هاجم الكاثوليكية ، واحرق بذلك معظ جسر من خلفه .

وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعيم المحتجين . واستهلها بتناول الأذى الذى لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه ، دون أن تتاح له أى فرصة للدفاع . واعترف بعيوب كتبه . « لقد وجدت أنا نفسى الأخطاء الكثيرة فيها . ولست أشك فى أن غيرى قد يرون فيها اخطاء أكثر ،

وأنه مازالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها لاأنا ولا غيرى . . . فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور . . وسينجح الكتاب أو يسقط ، وتنتهى القضية عند هذا[٤٣] . ولكن أكان الكتاب مؤذيا ؟ أيمكن أن يقرأ انسان « هلويز الجديدة » « وإعلان إيمان كاهن سافوى » ثم يعتقد حقا أن مؤلفها قصد هدم الدين ؟ صحيح ان الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنها شر بلاء رزئت به البشرية ، ولأنها محنة الحكماء وأداة الطغيان[٤٤]. ولكن ألم يؤكدا ضرورة الدين ؟ ان المؤلف يتهم بعدم ايمانه بالمسيح ، وهومؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه .

اننا نعترف بسلطان المسيح ، لأن فكرنا يوافق على تعاليمه ولأننـــا نجدها تعاليم سامية . ونحن نسلم بالوحى منبثقاً من روح الله ، دون أن نعرف كيف . . وإذ نقر بسلطان إلهى فى الانجيل ، فاننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان ، ونحن نقر بفضيلة فى سلوكه تفوق فضيلة البشر ، وبحكمة فى تعليمه تفوق حكمة البشر . »

وأنكر الخطاب الثانى حق مجلس مدنى فى الحكم فى قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعى) . وفى إدانة إميل انتهاك لمبدأ أساسى من مبادىء حركة الاصلاح البروتستنتى ، وهو حق الفرد فى أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه[٤٥] .

« لوبرهنت لى اليوم اننى فى مسائل الدين مضطر للاذعان لقرارات غيرى ، فسأتحول إلى الكاثوليكية غدا[٤٦] » . وسلم روسو بأن دعاة الاصلاح البروتستنتى أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردى[٤٧] . ولكن هذا لايبطل المبدأ الذى لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة . واتهم القساوسة الكلفنيين (باستثناء راعى) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب ، ولو كانوا أوفياء لروح الاصلاح البروتستنتى لدافعوا عن حقه فى نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس . وجاد الآن بكلمة ثناء على رأى دالامبير فى قساوسة جنيف :

« أن أحد الفلاسفة يلقى عليهم نظرة عجلى ، ثم يتغلغل إلى أعماقهم ،

فيرى أنهم أريوسيون ، سوسينيون ، فيقول هذا ، ويحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لايدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للخطر ، وهو الأمر الوحيد الذى يقرر على العموم إيمان البشر فى هذه الدنيا(٤٨) . »

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات . فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة ، فلن نستطيع أبدا أن نعرف هل الشىء معجزة أم غير معجزة ، لأننا لانعرف كل قوانين الطبيعة(٤٩) . فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم ، لامخالفا بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم .

كان الأنبياء فى قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلمتهم ، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل) . ان يشوع أوقف الشمس ، وأى واضع للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس(٥٠) . وكما أن الأوربين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدهم هؤلاء آلهة ، فكذلك معجزات الماضى — حتى معجزات المسيح — ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعى(٥١) . ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتا . ثم ، كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه ، إذا كان معلمو التعاليم المعتبره عموما تعاليم كاذبة قد أجرو معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية ، كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون فى تحويل العصى إلى حيات ؟(٥٢) . ان المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب(٥٣) .

كان روسو قد بدأ خطاباته بغرض مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى ، ولم يطلب توسيعا لحق الانتخاب فى اتجاه ديمقراطى ، لا بل انه فى الخطاب الرابع يلتزم بالرأى بأن الارستقراطية المنتخبة هى خير أشكال الحكم ، وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذى رسمه فى «العقدالاجتماعى» كان فى صميمه متفقا مع الدستور الجنيفى (٥٤) . ولكن فى الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البورجوازية المحتجة أن الدستور لايقر سيادة المواطنين

ذوى الحقوق الانتخابية إلا خلال الإنتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوى ، أما فى باقى السنة فالمواطنون مجردون من السلطة . وفى تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى فى القوانين ، وفى مصير جميع الأفراد تبعا لذلك ، والواقع أن المواطنين والبورجوازين الذين يبدون أصحاب سيادة فى المجلس العام ، يصبحون بعد فضه عبيدا لسلطة استبدادية اسلموا بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبدا(٥٦) .

وكان هذا اقرب إلى الدعوة للثورة . ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير . ففى خطابه الأخير اثنى على البورجوازية باعتبارها اعقل طبقة فى الدولة ، واكثرها حباللسلام ، محصورة بين طبقة اشراف غنية ظالمة ، وجماهير متوحشة غبية(٥٧) . ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة ، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم .

واغضبت « خطابات الجبل » هذه اعداء روسو وساءت اصدقاءه . . وأفزعت هرطقاته القساوسة الجنيفيين ، وزادهم فزعاً إدعاؤه أنهم يشاطرونه أياها . فانقلب الآن فى عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم « رعاع غشاشون ، بطانة غبية ، وذئاب مسعورة » . « وأعرب عن إيثاره للكهنة الكاثوليك البسطاء فى القرى والمدن الفرنسية(٥٨) . ولم يستعن « المحتجون » بالخطابات فى حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية ؛ واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليه ، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأى نصيب فى السياسة الجنيفية .

٤ — روسو وفولتير

كان قد تساءل فى الخطاب الخامس ، لم لم يوح « المسيو فولتير » الذى « طالما زاره » أعضاء المجلس الجنيفيون ، لهم « بروح التسامح تلك التى لا ينى عن التبشير بها ، والتى يحتاج هو إليها أحياناً ؟ وأجرى على لسان فولتير حديثا خيالياً(٥٩) يحبذ فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تذكر

هى التى تقرأ لهم . وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعا . ولكنه صور حكيم فرنية معترفا بتأليفه لكتاب نشر حديثا أسمه « عظة الخمسين » وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالهرطقات . ولاندرى أكان كشف روسو للسر متعمداً خبيثاً ؟ على أى حال هذا ما رآه فولتير ، وحنق منه أشد الحنق ، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد ، فى الوقت الذى كان مستقراً فيه فى فرنية .

وصاح حين قرأ الخطاب الواشى « ياللمجرم ! يا للوحش ! كان يجب أن أضربه بالنبوت — نعم ؛ سآمر بضربه بالنبوت فى جباله عند ركبتى مربيته ؛ » وقال متفرج « أرجو أن تهدىء روعك ، لأنى أعلم أن روسو ينوى أن يزورك ، وسيكون فى فرنية قريباًجداً » .. وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى « آه ، فليأت فقط » .

« ولكن كيف ستستقبله ؟ »

« سأقدم له العشاء ، وأعطيه فراشى ، وأقول له » هاك عشاء طيبا ، وها هو أفضل فراش فى البيت ؛ فتفضل بقبول الأثنين وانعم بالسعادة هنا [٦٠] » .

ولكن روسو لم يحضر . وثأر فولتير لنفسه بأصداره (٣١ ديسمبر ١٧٦٤) كتيباً بقلم مجهول ، سماه « عواطف المواطنين » هو لطخة من أشد اللطخ التى تلوث خلقه ومهنته سوادا . ولابد من نقل ماجاء به ليصدق القارىء :

« أننا نرثى للأحمق ، ولكن حين تستحيل حماقته جنونا فاننا نوثق رباطه. ذلك أن التسامح — وهو فضيلة — يصبح عندها رذيلة . . . . . لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته ، التى آذى فيها اللياقة والحياء كما آذى المنطق السليم . وحين خلط الدين بقصصه ، أضطر قضاتنا إلى محاكاة قضاة باريس . . . . وبرن . . . واليوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتابا جديداً يعتدى فيه إعتداء مجنونا على الدين المسيحى ، وعلى الأصلاح البروتستنتى الذى يدعيه ، وعلى كل خدام الأنجيل المقدس وكل هيئات الدولة ؟ — إنه يقول بجلاء ، وباسمه

صراحة ، ليس فى الانجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نطلق عقولنا .....

« أهو عالم يجادل العلماء ؟ لا . . . بل رجل مازال يحمل آثار فجوره المخزية . . . ويجر معه من بلد إلى بلد ، ومن جيل إلى جيل ، المرأة التعسة التى كان سبباً فى موت أمها ، والتى ألقى باطفالها على باب مستشفى . . . جاحداً كل مشاعر الطبيعة ، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين . . .

« أيريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه ، كما يريد أن يطيح بالمسيحية التى يدعيها ؟ يكفى أن ينذر بأن المدينة التى يزعجها تنكره . . . . . فإذا ظن أنها تمتشق الحسام [أى تقوم بثورة] بسبب [إدانة] إميل ، فليضف هذه الفكرة إلى سخافاته وحماقاته . . ولكن يجب أن نخبر بأننا إن نرفقنا فى عقاب رواية فاجرة ، فإننا سنقسو فى عقاب خائن لئيم[٦١] . »

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لهـــا غضب فولتير ولا أمراضه ولاشيخوخته ، (وكان الآن فى السبعين) .

لأعجب إذا كان روسو لم يصدق قط (وحتى فى يومنا هـــذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه ، بل نسبه إلى القس الجنيفى فيرن ، الذى أكد عبثاً أنه ليس كاتبه . وأذاع روسو فى لحظة من أجمل لحظاته ردا على « العواطف » (يناير ١٧٦٥) :

« أريد أن أدلى ببساطة بالتصريح الذى يبدو أنه مطلوب منى بهذا المقال . فما من علة صغيرة أو كبيرة ، كما يدعى المؤلف ، قد لوثت قط جسدى . والعلة التى أصابتنى ليس هناك أدنى شبه بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معى ، ويعرف ذلك الذين رعونى فى طفولتى ، الباقون على قيد الحياة . وهى معروفة للسيدات مالوان ، وموران ، وتيرى ، ودارن . . . فإذا وجدن فى هذه العلة أقل أمارة من أمارات الفجور ، فأنى أرجوهن أن يلعننى ويفضحننى . . والمرأة العاقلة التى يقدرها العالم ، والتى تعنى بى فى كوارثى . . لا يشقيها إلا مشاطرتها لشقائى . أما أمها فهى فى

الواقع فياضة بالحياة ، وفى صحة سابغة ، رغم شيخوختها [فقد عمرت إلى الثالثة والتسعين] . ولم ألق قط ، ولا تسببت فى إلقاء أى أطفال على باب مستشفى ولا فى أى مكان آخر . . . ولن أزيد . . اللهم إلا القول بأننى حين يحضرنى الموت أوثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمنى به المؤلف ، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا . .(٦٢)

ومع أن تسليم روسو أطفاله لملجأ للقطاء (لا إلقاءهم فى العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون فى باريس (فقد اعترف به للمرشالة لكسمبورج)، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء علنى لهذا السر . وخامر جان — جاك الظن فى أن مدام دبينيه أفشته عند زيارتها لجنيف ، واقتنع الآن بأنها هى وجريم وديدرو كانوا يأتمرون لتشويه سمعته . وقد هاجم جريم روسو فى هذه الفترة غير مرة فى « الرسائل الأدبية(٦٣) » . وفى خطابه المؤرخ ١٥ يناير ١٧٦٥ فى معرض الحديث عن « خطابات من الجبل » أنضم إلى فولتير فى أتهام روسو بالخيانة : « إن وجد فى أى مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى ، فهى ولاريب فى مهاجمة الدستور الأساسى لدولة بالأسلحة التى استخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه » .

والشجار الطويل الذى نشب بين فولتير وروسو من أفجع اللطخ التى لوثت وجه حركة التنوير . لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما . ففولتير ، ابن الموثق الموسر ، تلقى تعليما حسنا ، لا سيما فى الدراسات القديمة ؛ أما روسو المولود فى أسرة فقيرة وشيكة التفكك ، فلم يتلق أى تعليم نظامى ، ولم يرث أى تقليد كلاسيكى ، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التى وضعها بوالو — «أحب العقل ، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهاءها وقيمتها(٦٤) . » أما فى رأى روسو (كما فى رأى فاوست وهو يغوى ما رجريت بروسو.) فإن « الوجدان كل شىء(٦٥). » وكان فولتير لا يقل عن جان — جاك حساسية وسرعة أنفعال ، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الأنفعال يشوه فنه ، وقد اشتم فى دعوة روسو للوجدان والغريزة لاعقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهى بالدين . وقد شجب فولتير بسكال ، أما روسو

فردده كالصدى . وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين ، أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته . وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع ، أما روسو فكان يشعر بالقلق فى المجتمعات ، وكان أقل صبرا وأضيق صدراً من أن يحتفظ بصداقة صديق . وكان فولتير ابن باريس ، وربيب مرحها وترفها ، أما روسو فكان طفل جنيف ، بورجوازيا مكتئبا ، وبيورتانيا يكره تمييز الطبقات الذى يجرحه ، وألوان البذخ التى لا قدرة له على الأستمتاع بها ، ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الإغنياء بتشغيل الفقراء ، أما روسو فادانه لأنه « يطعم مائة فقير فى مدننا ويسبب هلاك مائة ألف فى قرانا[٦٦] » وذهب فولتير إلى أن آثام الحاضرة ترجحها فنونها وما توفره من أسباب الراحة ، أما روسو فكان لا يشعر بالراحة فى أى مكان ، ويندد بكل شىء تقريباً . وأصغى المصلحون إلى فولتير ، واستمع الثوار إلى روسو .

إن هوراس وليلول حين قال إن « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون[٦٧] . » أجمل فى سطر واحد ؛ على غير قصد منه ؛ حياة أعظم عقلين من عقول القرن الثامن عشر تأثيرا فى الناس .

٥ — بوزويل يلتقى بروسو

فى وراية بوزويل لزيارات خمس قام بها لجان — جاك فى ديسمبر ١٧٦٤ تصوير غاية فى اللطف لروسو . فلقد أقسم ذلك المعجب الذى لامهرب منه يمينا مغلظة (٢١ أكتوبر) أنه « لن يكلم ملحدا ؛ ولن يتمتع بامرأة ؛ قبل أن يلقى روسو[٦٨] » وفى ٣ ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتييه — ترافير . وحين بلغ برو فى منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته . وكان جوابها مقلقا :

« إن المسيو روسو يحضر هنا كثيراً ويمكث أياما مع مدبرة بيته ؛ الآنسة ليفاسير . وهو رجل لطيف جداً ؛ له وجه جميل ؛ ولكنه لا يحب أن يأتى الناس ويحملقوا فيه كأنه رجل له رأسان . ياللسماء ! أن فضول

الناس لا يصدق ؛ أن كثيرين ؛ كثيرين يأتون ليروه ؛ وكثيراً ما يرفض لقاءهم . إنه مريض ؛ ويكره أن يزعجه أحد(٦٩) » .

ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع . وفى موتييه نزل بفندق القرية .

« وأعددت خطابا لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلنديا عتيق الطراز فى الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائة . وأكدت له أننى جدير باحترامة . . . وفى خاتم خطابى بينت له أن لى قلبا وروحاً . . . والخطاب آية فى بابه حقاً . وسأحتفظ به ما حييت برهانا على أن فى قدرة روحى أن تتسامى(٧٠) » .

وكان خطابه — الذى كتبه بالفرنسية — مزيجا بارعاً من السذاجة المتعمدة والأعجاب الذى لايرد :

« إن كتاباتك ياسيدى أذابت قلبى . ورفعت روحى . وألهبت خيالى . صدقنى سيبهجك أن تلتقى بى . إيه ياسان — برو العزيز ! أيها المعلم المستنير ! أى روسو البليغ المحبوب ! يحدثنى قلبى بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم.. لدى الكثير الذى أحدثك به . ومع أننى لست إلا شابا فقد خبرت من الوان الحياة ما سيدهشك . . . ولكنى أتوسل اليك أن تلقانى وحدك . . . ولا أدرى هلا أفضل أن ألقاك إطلاقا من أن القاك أول مرة فى صحبة . وأنى مترقب ردك بفارغ الصبر(٧١) .

وأرسل له روسو كلمة يقول إن فى استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة . وذهب بوزويل « مرتديا سترة وصدرية قرمزية بدانتيلا مذهبة ، وبنطلون ركوب من جلد الغزال ، ومنتعلا حذاءا طويلا . وفوق ذلك كله لبست معطفا كبيرا من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب » . وفتحت تريز الباب « فتاة فرنسية قصيرة رشيقة أنيقة » . وقادته صعدا إلى روسو — رجل ظريف أسمر اللون فى زى الأرمن ... وسألته عن صحته فقال : « مريض جدا ولكنى طلقت الأطباء » . وأعرب روسو عن اعجابه

بفردريك وازدرائه للفرنسيين — « شعب جدير بالاحتقار ، ولكنك ستجد نفوسا عظيمة فى أسبانيا » . بوزويل : «وفى جبال اسكتلندة» . وقال روسو عن اللاهوتيين أنهم « سادة يقدمون تفسيرا جديدا لشئ من الأشياء ويتركونه مغلقا على الأفهام كما كان » . وناقشا أحوال كورسيكا ، وقال روسو أنه قد طلب اليه أن يشرع لها قوانين ، وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا . ثم صرفه روسو بعـــد قليل ، قائلا أنه يود التمشى منفردا .

وفى ٤ ديسمبر استأنف بوزويل الحصار . وتحدث معه روسو مليا ، ثم صرفه : انك « تزعجنى . هذا طبعى ولا حيلة لى فيه . » بوزويل : « ارفع الكلفة معى » . روسو « امضى » . وصحبت تيريزا بوزويل إلى الباب وقالت له « لقد عشت مع المسيو روسو اثنين وعشرين عاما ، ولن أتخلى عن مكانى لأكون ملكة فرنسا . وأنا أحاول الانتفاع بالنصيحة الطيبة التى يسديها إلى . وإذا مات سأضطر إلى دخول الدير[٧١]

وطرق بوزويل الباب مرة أخرى فى ٥ ديسمبر . وتأوه روسو « يا سيدى العزيز ، يؤسفنى عجزى عن التحدث إليك كما أشتهى » بوزويل : نحى هذه الأعذار وأثار الحديث بقوله : لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوى الاختفاء فى دير روسو ياللحماقة ! . . بوزويل : « أخبرنى بحق أأنت مسيحى ؟ » وقرع روسو صدره وأجاب : « نعم إننى أعتز بأنى مسيحى . » بوزويل (الذى كان مصاباً بالاكتئاب) قل لى : هل تعانى من الاكتئاب ؟ روسو : لقد ولدت هادئاً ، وليس بى ميل طبيعى للاكتئاب. لقد أصابتنى به الكوارث التى حلت بى . بوزويل :ما رأيك فى الأديار ، والكفارات ، والعلاجات التى من هذا النوع ؟ روسو : كلها سخافات . بوزويل : هل لك يا سيدى أن تضطلع بارشادى الروحى ؟ روسو : لاأستطيع . بوزويل: سأعود . روسو : لا أعد بلقائك . إننى أعانى ألماً ، اننى احتاج إلى مبولة كل دقيقة[٧٣] .

فى عصر ذلك اليوم ، فى بيت القرية كتب بوزويل فى أربع عشرة

صفحة مجملا لحياتى وبعث به إلى روسو . وقد اعترف فيه بحادث زنا أتاه ، وسأل روسو ألا يزال فى امكانى أن أجعل نفسى رجلا ؟ وعاد إلى نوشاتل ، ولكنه كان بباب روسو مرة أخرى فى ١٤ ديسمبر وأخبرته تريز أن سيدها مريض جدا ، وأصر بوزويل ، واستقبله روسو « ووجدته جالسا وهو فى غاية الآلم » . روسو : لقد غلبنى العلل ، وخيبات الأمل، والحزن . إننى استعمل مجسا . كل إنسان يعتقد أن من واجبى أن أصغى له . . عد فى العصر . موزوبل : وكم تطول زيارتى ؟ روسو : « ربع ساعة ، لاأكثر . بوزويل :عشرين دقيقة . روسو : هيا انصرف . ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك .

وعاد موزويل فى الرابعة وهو يحلم بلويس الخامس عشر . « إن الأخلاق تبدو لى أمرا غير يقينى . فأنا مثلا أحب أن يكون لى ثلاثون امرأة . ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة ؟ لا . ولكن انظر ، لوكنت غنيا لاستطعت أن اتخذ عددا من الفتيات ، وأحبلهن ، وبهذا يزداد النسل . ثم أعطيهن مهوراً ، وأزوجهن لفلاحين طيبين سيسعدون جداً بالزواج منهن . وهكذا يصبحن زوجات فى نفس السن التى كن يتزوجن فيها لوظللن أبكاراً ، وأكون أنا من ناحيتى قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء * فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكى ، سأله « أخبرنى من فضلك كيف أكفر عن الشر الذى ارتكبته ؟ وأجاب روسو جوابا ذهبياً « ليس هناك تكفير عن الشر إلى الخير[٧٤] . وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعوه للغداء ، وقال روسو « غدا » وعاد بوزويل إلى الفندق منتعشا غاية الانتعاش .

وفى ١٥ ديسمبر تناول الطعام مع جان — جاك وتريز فى المطبخ ، وقد وجده نظيفا مشرقا . وكان روسو رائق المزاج ، ولم تبد عليه علامات الاضطرابات العقلية التى ستظهر فيما بعد . وكان كلبه وقطته على وفاق مع بعضهما البعض ومعه . « ووضع بعض الطعام على صينية خشبية ، وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو .. لحنا مرحا بصوت

رخيم وذوق رفيع . وتحدث بوزويل فى الدين .. « ان الكنيسة الانجليكانية أفضل المذاهب عندى . روسو : نعم ، ولكنها ليست الإنجيل . ألا تحب القديس بولس ؟ انني احترمة ، ولكنى أحسبه مسئولا إلى حد ما عما فى رأسك من اختلاط . لوعاش لكان قسيسا انجليكانيا .

الآنسة ليفاسير : أستلقى المسيو دفولتير يا سيدى ؟ بوزويل : بكل تأكيد. ثم إلى روسو : ان المسيو دفولتير لايحبك . روسو : أن المرء لايحب من أذاهم أذى شديداً . أن حديثه ممتع جداً ، لا بل إنه يفضل كتبه . وطال وزويل المكث فوق ما تحتمله الضيافة ، ولكن حين ودع « قبلنى روسو مرات ، وضمنى بين ذراعية بود رقيق » . فلما وصل بوزويل إلى الفندق قالت ربته سيدى : أظنك كنت تبكى . ويضيف إنى احتفظ بذكرى هذه الكلمات إطراء صادقا لإنسانيتى (٧٥) .

٦ — دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير فى فرنيه ، مضى فى رحلته إلى ايطاليا ونابلى وكورسيكا ، ربما بحث من روسو . وكانت كورسيكا بزعامة باسكالى دى باولى قد حورت نفسها من سيطرة جنوه (١٧٥٥) ورحب روسو فى « العقد الاجتماعى » من قبل بمولد الدولة الجديدة .

ما زال فى أوربا بلد واحد مفتوح للمشرع ، انه جزيرة كورسيكا . والبسالة والأصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرتة على استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من انسان حكيم يعلمهم كيف يحتفظون بها . ونفسى تحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش أوربا يوما ما(٧٦) . »

ولو أخذ رأى فولتير لرأى أن روسو آخر رجل فى أوربا يصح دعوته للتشريع . ولكن الذى حدث أن جان — جاك تلقى فى ٣١ أغسطس ١٧٦٤ الخطاب الآتى من ماتيو بوتافوكو ، المبعوث الكورسيكى لدى فرنسا :

« لقد ذكرت كورسيكا ياسيدى فى « عقدك الاجتماعى »على نحو يثيه به وطننا . وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك. . .أوحى بالرغبة القوية فى إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذى يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التى إقتنتها بدم كثير . وإنى إدرك بالطبع أن المهمة التى أجرؤ على الالحاح عليك فى الأضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل ... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضروريةلإنارتك. وسيبذل المسيو باولى . . . قصاراه ليرسل اليك من كورسيكا كل المعلومات التى قد تحتاج إليها . ويشاطرنى رغبتى هذا الزعيم المرموق ، لا بل جميع اخوانى المواطنين الذين أتيح لهم الإطلاع على إعمالك ، ويشاركوننى مشاعر الاحترام التى تشعر بها أوربا كلها نحوك ، والتى أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً[٧٧] » .

ورد روسو (١٥ أكتوبر ١٧٦٤) بقبول المهمة ، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكى ، وتاريخه ، ومشاكله . واعترف بأن العمل قد يكون « فوق طاقتى وإن لم يكن فوق تحمسى » . ثم كتب إلى بوتافيوكو ، فى ٢٦ مايو ١٧٦٥ يقول : غير أنى أعدك أنه لن يكونلى إهتمام فيما بقى لى من أجل غـــير نفسى وكورسيكا ، وكل ماعدا ذلك من أمور سأقصية عن إفكارى[٧٨]» . ثم عكف من فوره على وضع « مشروع دستور لكورسيكا » .

واقترح روسو فى مشروعه و « العقد الاجتماعى » فى ذاكرته ، أنيوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه — « جسدى وأملاكى وارادتى ، وكل قدراتى » — تحت تصرف الأمة الكورسيكية[٧٩] . وحيا « الكورسيكيين البواسل » الذين ظفروا باستقلالهم ، ولكنه نبههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة — كالكسل ، وقطع الطريق ، والعداوات ، والوحشية — ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب . وخير علاج لهذهالرزائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة . وينبغى أن توفر القوانين كل إغراءللشعب ليلزم الأرض بدلا من التجمع فى المدن ، فالزراعة تعين على الخلقالفردى

والصحة القومية ، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال ، ويجب على الدولة ألا تشجعها . ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة ؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزابا إلى الأربعين . ويجب خفض الملكية الخاصة وزيادة ملكية الدولة.. « بودى أن أرى الدولة المالك الوحيد ؛ ولا يصيب الفرد من لمكية المشتركة إلا بنسبة خدماته [٨٠] » ، وينبغى إلزام السكان بفلاحة أراضى الدولة إذا إقتضى الأمر ، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله ، وعلى الآداب العامة كلها ؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات) .

وفى ١٧٦٨ اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه ؛ وجردت عليها جيشا ؛ وعزلت باولى ، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسى . وكف روسو عن المضى فى مشروعه ؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها إنتهاك « لكل عدل ؛ وإنسانية ؛ وحق سياسى ، وتفكير سليم [٨١] » .

٧ — اللاجىء

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة فى موتييه ؛ يقرأ ؛ ويكتب ويرعى مرضه ، ويعانى من إصابة بعرق النسا (أكتوبر ١٧٦٤) ؛ ويحتفى بالزوار الذين تجيزهم تريز بعد الفحص . وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال :

« أنك لا تتصور أى سحر فى الاجتماع به ؛ ولا أى إدب صادق فى سلوكه ؛ ولا أى عمق من الهدوء والبشاشة فى حديثه . ألم تتوقع صورة مغايرة تماماً لهذه الصورة ؛ وألم تصور لنفسك مخلوقا غريب الأطوار ؛ جادا دائما لا بل فظا أحيانا ؟ فيالها من غلطة ! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثير نظرة من نار ؛ وعينين لم ير قط مثل لحيويتهما . فأذا تناولت موضوعا يهتم به ، تكلمت عيناه ، وشفتاه ، ويداه — وكل ما فيه . وأنت تخطىء كل الخطأ أن تصورته إنسانا لا يكف عن التذمر . فهو على النقض يضحك مع الضاحكين ويثرثر ويمزح مع الأطفال ؛ ويسخر من مديرة منزله [٨٢] » .

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد أكتشفوا مافى « إميل » و«خطابات الجبل» من هرطقات ، ورأوها فضيحة أن يمضى هذا الوحش فى تلويث سويسرة بوجوده فيها . ورغبة فى تهدئة ثائرتهم عرض (١٠ مارس ١٧٦٥) أن يتعهد ، فى وثيقة رسميـــة « بالا ينشر أبدا أى كتاب جديد فى أى موضوع دينى ، لا بل أن يتناوله عرضا فى أى كتاب جديد آخر . . . وأكثر من ذلك أننى سأظل شاهدا ، بمشاعرى وسلوكى ، بالقيمة العظمى التى أعلقها على سعادة الإتحاد بالكنيسة[٨٣]» . وإستدعاه مجمع كنيسة نوشاتل للمثول أمامه والرد على تهم المرقطة الموجهة إليه ، فالتمس إعفاءه : « يستحيل على رغم صدق نيتى أن أحتمل جلسة طويلة[٨٤] وهـــو ما كان الحقيقة المؤلمة » . وانقلب عليه راعى كنيسته ، ونددبه فى مواعظ علنية متهما أياه بأنه عدو المسيح[٨٥] . وألهبت هجمات القساوسة شعب أيرشيلتهم ، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشى . وقرب نصف ليلة ٦ — ٧ سبتمبر أيقظته هـــو وتريز حجارة تقذف على جدرانهما وتحطم نوافذهما . وأخترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه . واستدعى جار له — وكان موظفاً فى القرية — بعض الحراس لإنقاذه ، وتفرق الجمع ، ولكن إصدقاء روسو الباقين فى موتييه نصحوه بأن يبرح المدينة .

وأتته عدة عروض تقدم له الملجأ « ولكنى كنت متعلقاً بسويسرة تعلقا منعنى من أن أصمم على الرحيل عنها مادام فى إستطاعتى العيش فيها[٨٦] » . وكان قد زار قبل عام « الإيل دسان — بيير » ، الجزيرة الصغيرة الواقعة فى وسط بحيرة بيين ، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد — هو بيت الوكيل ، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكرهه الناس . وكان يقع فى كانتون برن التى طردته قبل عامين ، ولكنه تلقى تأكيدات غـــير رسمية بأن فى إستطاعته الإنتقال إلى الجزيرة دون أن يخشى الأعتقال[٨٧] .

وهكذا ، حوالى منتصف سبتمبر ١٧٦٥ ؛ بعد ستة وعشرين شهراً فى موتييه ؛ ترك هو وتريز المنزل الذى أصبح عزيزا عليهما ، وذهبا للأقامة مع

أسرة الوكيل فى مكان لا يتيح إنعزاله « لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره[٨٨] » . «وخيل إلى أننى سأكون فى تلك الجزيرة أشد إنعزالا عن الناس . . . . وأن البشر سيكونون أسرع نسيانا لى[٨٩] » . ورغبة فى تغطية نفقاته أعطى الناشر دوبيرو حق نشر كل كتبه ؛ « وجعلته مستودع جميع أوراقى ؛ بشرط صريح هـو ألا يستعملها إلا بعد موتى ؛ لأن غاية أمانى كانت أن اختم حياتى فى هدوء ؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدنى مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير[٩٠] » . وعرض عليه المريشال كيت معاشا سنويا قدره ألف ومائتا جنية ؛ فوافق أن يأخذ نصفه . ودبر معاشا آخر لتريز . واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر . وكان الآن فى سنته الثالثة والخمسين .

وبعد ثلاثة عشر عاماً — فى آخر سنة فى عمره — ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه « أحلام متجول وحيد » وصف فى بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان — بيير «كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هى حياة الدعة اللذيذة[٩١] » . وقد رأينا فى غير هذا الموضع مبلغ إعجابه بلينايوس ؛ أما الآن ، وفى يده احد كتب عالم نبات سويدى ؛ فقد بدأ يعدد ويدرس النباتات التى وجدها على ملكه الصغير . أو كان إذا صحا الجو يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن :

« كنت أرتمى وحيداً فى زورق أجدف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئا . هناك ؛ وأنا ممدد بطولى كله فى الزورق ؛ وعيناى إلى السماء كنت أترك نفسى للماء يحملنى هونا كما يشاء ؛ ساعات عدة أحيانا ، وأنا غارق فى مئات الأحلام المبهجة[٩٢] » .

ولكن راحته لم تطل حتى على هذه المياه . ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره فى ١٧ أكتوبر ١٧٦٥ بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً . وغلبته الحيرة والهزيمة «فالتدابير التى كنت قداتخذتها تأمينا لموافقة الحكومة الضمنية ، والهدوء الذى تركت فيه لأستقر ، وزيارات العديدين

من أهل برن لى» ، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن فى مأمن من الازعاج والمطاردة . والتمس من مجلس الشيوخ شيئاً من التفسير والتأجيل ، واقترح بديلا يائسا لحكم النفى :

« لست أرى لى غير سبيل واحد ، ومهما بدأ رهيباً ، فانى سأتخذه لا دون نفور فحسب ، بل برغبةشديدة إذا تفضل أصحاب السعادة بالموافقة . وذلك إننى إن طاب لهم سأقضى مابقى لى من أجل سجينا فى إحدى قلاعهم ، أو فى أى مكان آخر فى ضياعهم يرون اختياره . وسأعيش فيه على نفقتى ، وسأقدم ضمانا بالا أكلفهم أى نفقة . وأقبل إلا أحمل ورقا أو قلما ، أو أكون على اتصال بأى إنسان فى الخارج . فقط اسمحوا لى ، مع بعض الكتب ، بالاحتفاظ بحرية المشى بين الحين والحين فى حديقة ، وسيرضينى هذا .

أكان ذلك ايذانا بأنهيار عقله ؟ أنه يؤكد لنا عكس هذا :

« لا تظنوا أن وسيلة تبدو هذا العنف هى ثمرة اليأس . فعقلى فى تمام الهدوء فى هذه اللحظة . وقد ترويت فى إتخاذ قرارى ، ولم أنته إليه إلا بعد تفكير عميق . وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هـــذا قرارا شاذا فإن وضعى أكثر شذوذا . فالحياة المضطربة التى أكرهت على أن احياها سنوات عديدة دون انقطاع ، خليقة بتعذيب رجل موفور العافية ، فما بالكم بعليل تعس براه التعب وسوء الحظ ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت فى هدوء وسلام[٩٣] » .

وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل اقليم برن خلال أربع وعشرين ساعة[٩٤] .

فإلى أين يمضى ؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك ، وإلى كورسيكا من باولى ، وإلى اللورين من سان — لا مير ، وإلى امستر دام من ناشره رى ، وإلى إنجلترة من ديفد هيوم . فنى ٢٢ أكتوبر كتب إليه هيوم الذى كان يومها سكرتيرا للسفارة البريطانية فى بارس يقول :

« أن محنك العجيبة التى لم يسمع بمثلها ، فضلا عن فضيلتك وعبقريتك

لابد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك ، ولكنى أعلل نفسي بأنك واجد فى انجلترة أمانا مطلقاً من كل اضطهاد ، لا بفضل ما تمتاز به قوانيننا من روح سمحة فحسب ، بل بفضل الاحترام الذى يكنه كل الناس هناك لشخصيتك (٩٥) » .

وفى ٢٦ أكتوبر غادر روسو جزيرة سان — بيير ورتب أن تظل تريز جينا فى سويسرة ، ورحل هو إلى سترا سبورج ، ومكث فيها شهراً كاملا دون أن يستقر على رأى . وأخيرا قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى انجلترة ، ومنحته الحكومة الفرنسية جوازا بالحضور إلى باريس . هناك التقى به هيوم أول لقاء ، وما لبث أن شغف به ، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفى . وكتب هيوم يقول « محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمة لروسو . . . فلم يظفر شخص قط بمثل ما ظفر به من اهتمام القوم . . . لقد حجب بهاء فولتير وسواه حجباً تاماً(٩٦) » .

ولكن الصداقة الوليدة أصيبت بصدع فى المهد ومن العسير هنا أن نحدد الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز : ففى أول يناير ١٧٦٦ أرسل جريم إلى قرائه التقرير الآتى :

دخل جان — جاك روسو باريس فى ١٧ ديسمبر . وفى الغد تمشى فى حدائق اللكسومبرج وهو يرتدى زيه الأرمنى ، وإذ لم ينبه أحد إلى الأمر فأن احداً لم ينتفع بالمشهد . وقد أسكنه الأمير كونتى فى التامبل حيث يعقد الأرمنى المذكور بلاطه كل يوم. كذلك يتمشى يوميا فى ساعة معينة فى الشوارع الكبيرة القريبة من مسكنه(*). وها هو ذا خطاب تداولته الايدى فى باريس خلال مكثه هنا ، وقد لقى نجاحاً كبيراً(٩٨) » .

وهنا نقل جريم خطابا زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر . وكان

(*) قارن خطاب روسو لصديقة دلوز : « وددت لو استطعت الخروج وزيارتك ، ولكنى مضطر لرجائك أن تحضر أنت إلى تحاشيا للإعلان عن قلنسوتى الارمنية فى الشوارع » .

قد زيفه على روسو هوراس وليول . ولندع وليلول نفسه يتحدث عنه فى خطاب له إلى ه . س كونواى فى ١٢ يناير ١٧٦٦ .

« أن الفضل فى شهرتى الراهنة لتأليف تافه جداً ، ولكنه أثار ضجة لا تصدق . ذلك إننى كنت ذات مساء فى بيت مدام جوفران أسخر من إدعاءات روسو وتناقضاته ، وقلت إشياء أضحكتهم . فلما عدت إلى البيت دونتها فى خطاب ، وأريتة فى الغد لهلفيتيوس ودوق نفرنوا ، وقد سرا به كثيراً حتى إنهما ، بعد الأشارة على بعض الأخطاء اللغوية . . . . شجعانى على اطلاع الناس عليه . وأنا كما تعلم يطيب لى أن اهزأ بالدجالين سواء السياسيين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم ، لذلك لم أنكر الفكرة . وسرت النسخ مسرى النار ، وهأنذا «اصبحت موضة et me voici à la mode . . . . . وإليك الخطاب (وهو مترجم حرفيا عن فرنسية وليول) :

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزى جان — جاك

لقد لفظت جنيف وطنك ، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرة ، البلد الذى أطريتة كثيراً فى كتاباتك ، وقد أصدرت فرنسا أمرا باعتقالك . فتعال إلى إذن ، فأنا معجب بمواهبك ، وتمتعنى أحلامك ، وهى (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغى وأطول مما ينبغى . وعليك أن تكون فى النهاية حكيما وسعيداً . لقد أثرت ما يكفى من الاقاويل بسبب غرائب لاتليق برجل عظيم بحق . فأثبت لخصومك أن فى استطاعتك احيانا أن تكون معقولا ، فمن شأن هذا أن يغيظهم دون أن يؤذيك . إن بلادى تقدم لك معتكفا هادئا ، وإننى أرجو لك الخير ، وأحب أن إساعدك إذا إستطعت أن تستطيب مقامك . أما إذا واصلت رفض معونتى ، فتأكد أننى لن أخبر أحدا بالأمر . وإذا اصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة ، فأختر ما يحلو لك منها ، فأنا ملك ، وفى إستطاعتى أن أحصل لك منها على مايلبى رغباتك ، وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك فى أن تضطهد — وهو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبدا بين خصومك .

صديقك المخلص فردريك (٩٩)

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط . ولم يجد عقله الرفيع الثقافة ، وثراؤه الموروث معنى فى كتابات روسو . وقد عرف عيوب روسو وحماقته من حفلات عشاء مدام جوفران ، حيث كان يلتقى ديدرو وجريم . وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب ، قد دفعته إلى مشارف الأنهيار العقلى سلسلة من المجادلات والضيقات . ولو كان وليول على علم بهذا حقا لكانت دعابته قاسية قسوة شائنة . على أننا ينبغى أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأيه فى إيجاد معتكف لروسو فى إنجلترة ، تعهد وليول بأن يمد الطريد بكل ضروب المعونة(١٠٠) .

أكان هيوم على علم بهذا الخطاب ؟ يبدو أنه كان موجودا ببيت مدام جوفران حين لفق أول الأمر ، وقد إتهم بأنه « شارك » فى تحريره(١٠١) . وقد كتب إلى المركيزة دباربنتان فى ١٦ فبراير ١٧٦٦ :

« إن الدعابة الوحيدة التى سمحت بها لنفسى فى أمر خطاب ملك بروسيا المزعوم كانت على مائدة عشاء اللورد أو سورى (١٠٢) » . وفى ٣ يناير ١٧٦٦ قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بآماله فى إنقاذ « الرجل القصير القامة » من الأضطهاد وتوفير أسباب السعادة له فى انجلترة . أما دولباخ فتشكك قائلا يؤسفنى أن ابدد الأمال والأوهام التى تخدعك ، ولكنى أقول لك إنه لن يمضى طويل زمن حتى ينقشع عنك الوهم بصورة محزنة . إنك لا تعرف صاحبك ، وأصارحك بأنك تحتضن ثعبانا فى صدرك(١٠٣) » .

وفى صباح الغد غادر باريس إلى كالية فى مركبتى اجرة هيوم وروسو مع جان — جاك دلوز وسلطان كلب روسو . ودفع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دبوفليه ، ومدام دفرديلان بمده بالمال . فلما بلغوا دوفر (١٠ يناير) عانق روسو هيوم ، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية .

٨ — روسو فى انجلترة

وصلوا إلى لندن فى ١٣ يناير ١٧٦٦ ولاحظ المارة زى روسو — قلنسوته الفراء ، وروبه الارجوانى ، وحزامة ، وأوضح لهيوم أنه يشكو مرضا يجعل سراويل الركوب القصيرة غير مريحة له[١٠٤] . واقنع هيوم صديقه كوفواى بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير ، ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنيه فى العام ، وأبدى رغبة فى أن يلقى عليه نظرة سريعة بصفة غـــير رسمية . وحجز جاريك لروسو وهيوم مقصورة فى مسرح دورى لين فى مواجهة المقصورة الملكية فى ليلة تقرر فيها حضور الملك والملكة . ولكن حين زار هيوم روسو لقى عنتا شديدا فى اقناعة بأن يترك كلبه الذى مزق نباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفى . وأخيرا « إحتويت روسو بين ذراعى و . . . . حملته على المسير فى شىء من الإكراه[١٠٥] ». وبعد الحفل دعى جاريك روسو إلى عشاء لتكريمة وهنأه روسو على تمثيله : « سيدى ، لقد جعلتنى اذرف الدموع على مأساتك ، وأبتسم لملهاتك ، مع مع أننى لم أكد أفهم كلمة من لغتك » .

وإلى هنا كان هيوم على الجملة مسرورا غاية السرور بضيفه . وكتب إلى مدام دباربنتان بعد وصوله إلى لندن يقول :

سألتنى رأيى فى جان — جاك روسو . وأنى بعد أن راقبته فى جميع النواحى . . . . أصرح بأننى لم أعرف رجلا أكثر منه لطفا ولا أكرم خلقا . فهو رقيق ، متواضع ، ودود ، نزيه ، مرهف الحس ، فإذا بحثت عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة ، وميل لاحتضان شبهات ظالمة فى خبر أصدقائه . . . أما عن نفسى فبودى لو أمضيت حياتى فى صحبته دون أن يكدر علاقتنا مكدر . أن فى سلوكه بساطة عجيبة . وهو فى الأمور العادية طفل بمعنى الكلمة . وهذا من شأنه أن يسهل . . . لمن يعيشون معه أن يسوسوه[١٠٦] » .

ثم يقول : « إن له قلبا حارا ممتازا ، وفى الحديث كثيراً ما تشتد حماسته

إلى ما يشبه الالهام . وإنى أحبه حباً جما وأرجو أن يكون لى فى وده نصيب . . . لقد تنبأ لى فلاسفة باريس إننى لن أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار ، ولكنى أحسبنى قادرا على العيش معه طوال حياتى فى صداقة وتقدير متبادلين . وأعتقد أن من أكبر أسباب انسجامنا أن كلينا لا يحب الجدل ، وهذا ليس حالهم . ويسؤهم منه أيضاً ظنهم إنه مغال فى الدين ؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هـــذا الجيل ، الذى لقى أشد اضطهاد أكثرهم تدينا (١٠٧) . . . أن به شوقا إلى الكتاب المقدس ، وهو فى الحق أفضل من المسيحيين قليلا(١٠٨) » .

على أنه كان هناك صعوبات . ففى لندن ، كما فى باريس ، توافد النبلاء والنبيلات ، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز فى شارع بكنجهام ، حيث أسكن هيوم روسو . وسرعان ما ضاق بهذه المجاملات ، ورجا هيوم أن يجد له بيتا بعيدا عن لندن . وجاء عرض بالعناية به فى دير ولزى ، فأراد أن يقبله ، ولكن هيوم اقنعه بأن يسكن مع بدال فى تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن . . فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلطان فى ١٨ يناير وأرسل الآن فى طلب تريز ، وأزعج مضيفه وهيوم باصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه . وشكا هيوم فى خطاب إلى مدام دبوفايه .

« إن مسيو دلوز.. يقول أن الناس يرونها شريرة محبة للشجار والثرثرة ، ويظنون أنها أهم سبب فى رحيله عن نوشاتيل (موتييه) . وهو نفسه يعترف أنها من الغباء بحيث لاتعرف فى أى سنة ميلادية نحن ولا فى أى شهر من السنة ، ولا فى أى يوم من الشهر أو الأسبوع ، وأنها لاتستطيع أن تتعلم أبدا القيم المختلفة للعملة فى أى بلد . ومع ذلك فهى تحكمه حكما مطلقا كما تحكم المربية طفلا . وقد اكتسب كلبه هذه السيادة فى غيابها ، فحبه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أوتصور(١٠٩) .

ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى انجلترة . وفى ١٢ فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوفليه

يقول « جاءنى خطاب فهمت منه أن الآنسة مسافرة على جناح السرعة فى صحبة صديق لى ، وهو شاب فى غاية الطيبة ، وفى غاية اللطف ، وفى غاية الجنون . . وبه من الولع بالأدب ما يجعلنى أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا[١١٠] . وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق . وقد جاء فى صفحات فى يوميته ، تالفة الآن[١١١] ، أنه شارك تريز فراشها فى نزل ثانى ليلة بعد رحيلهما عن باريس . ثم ليالى عديدة بعدها . ووصلا إلى دوفر باكرا فى ١١ فبراير . وتقول اليومية : « الأربعاء١٢ فبراير . ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكرا جدا ، وفعلتها مرة ، والجملة ثلاث عشرة . كنت فى الحق محبا لها . وفى الثانية بعد الظهر قمنا فى رحلتنا . فى ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدها بأنه « لن يذكر علاقتهما الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف . »

وفى المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو . ولقيها بقبلات كثيرة . . وقد بدا فى حال من الشيخوخة والضعف حتى «إنك (بوزويل) لم يعد فيك حماسة له[١١٣] طبعاً . »

وفى تشيزيك ، كما فى موتييه ، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد ، وشكا من نفقات البريد التى كان عليه أن يدفعها . وذات يوم ، حين جاءه هيوم ؛ «شحنة » من لندن ، رفض تسلمها ، وطلب اليه أن يردها إلى مكتب البريد . ونبهه هيوم أن موظفى البريد فى هذه الحالة سيفتحون الحطابات المرفوضة ويطلعون على أسراره . وتطوع الاسكتلندى الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن وإلا يأتيه إلا بما يراه هاما منها . ووافق جان — جاك ، ولكنه سرعان ما توجس شرا من عبث هيوم ببريده .

وأتته دعوات للغداء ، شاملة للآنسة ليفاسير عادة ، من الأعيان فى لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السبب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام علية القوم . وكان يبدى رغبته فى الانزواء فى أعماق الريف . فلما سمع رتشرد ديفنيورت برغبته هذه من جاريك ،

عرض عليه بيتا فى ووتن بداربيشير على ١٥٠ ميلا من لندن . فقبله روسو مغتبطا . وأرسل ديفنبوت مركبة تنقله هو وتريز ، وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين ، وأردف قائلا لهيوم « ان كانت هذه حقا حيلة من حيل ديفنبورت ، فأنت عليم بها موافق عليها ، وما كان فى امكانك أن تسىء إلى بأكثر من هذا » . وبعد ساعة (كما يقول هيوم) ، جلس فجأة على ركبتى ، وطوق عنقى بيديه ، وقبلنى بكل حرارة ثم قال وهو يبلل وجهى كله بالدموع : «أيمكن أن تصفح عنى يا صديقى العزيز ؟ انى بعد جميع دلائل الود التى تلقيتها منك ، أجازيك النهاية بهذه الحماقة وهذا المسلك السىء . ولكن لى رغم ذلك قلبا جديرا بصداقتك ، وأنا أحبك وأقدرك ، ولم تضع على سدى أقل مكرمة من مكرماتك » فقبلته وعانقته عشرين مرة بفيض من الدمو [١١٣] .

وفى الغد ٢٢ مارس انطلق جان — جاك وتريز قاصدين ووتن ، فلم يرهما قط بعدها . ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيوبلير تحليلا بصيرا بحالة روسو وخلقه .

كان مصمما تصميم البائس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتى ، وأنا أتوقع أنه سيكون تعسا فى موقفه ذاك كما كان فى الواقع تعسا فى جميع المواقف . فسيكون محروما تماما من أى شغل يشغله ، ومن الأصحاب ومن أى تسلية من أى نوع تقريباً . لقد قرأ أقل القليل فى حياته ، وطلق الآن كل قراءاته طلاقا بائنا ، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أى فضول ليرى أو يلاحظ . والواقع أنه لايملك الكثير من المعرفة ، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط ، واحساسه فى هذه الناحية مرهف إلى حد لا أعرف له مثيلا ، ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة ، وما أشبهه برجل لم تنزع عنه ثيابه فحسب ، بل جلده أيضا . ثم دفع به فى ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التى تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل [١١٤] .

ووصل روسو وتريز إلى ووتن فى ٢٩ مارس . وراقه البيت الجديد لأول وهلة . فوصفه فى خطاب لصديق بنوشاتل : « بيت منعزل ... ليس واسعا جدا ولكنه مناسبا جدا ، شيد فى منتصف الطريق على جانب واد ، وأمامه « أبدع مخضرة فى الوجود » ومشهد طبيعى من مروج، وأشجار ، ومزارع متفرقة ، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير . وفى أسوأ الأجواء أخرج فى هدوء لجمع النباتات[١١٥] » . وكان آل ديفنبورت يشغلن قسما من البيت حين يلمون به ، وبقى به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و « مديرة بيته » . وأصر روسو على أن يؤدى لديفنبورت ثلاثين جنيها فى العام نظير الأجرة والخدمة .

ولم تعمر سعادته أكثر من أسبوع . ففى ٣ ابريل نشرت مجلة لندنية تسمى « سانت جيمس كرونكل » بالفرنسية والانجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو ، دون اشارة إلى كاتبه الحقيقى . وحز الأمر فى نفس جان — جاك حين نمى اليه الخبر ، وزاد من ألمه أن محرر المجلة وهو وليم ستراهان كان صديقا قديما لهيوم . يضاف إلى هذا ان نغمة الصحف البريطانية فى حديثها عن روسو تغيرت تغيرا واضحا منذ برح تشزيك ؛ فكثرت المقالات التى انتقدت الفيلسوف الغريب الأطوار ، واحتوى بعضها على أشياء اعتقد أن هيوم وحده هو الذى يعرفها ، ويمكن أن يزود بها الصحف . على أى حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئاً للدفاع عن ضيفه الأسبق . وسمع أن الاسكتلندى كان يسكن بلندن البيت الذى يسكنه فرانسوا ترونشان ؛ ابن عدو جان — جاك فى جنيف ، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم تام بنقائص روسو .

وفى ٢٤ إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتى :

« لقد عدوت ياسيدى على الاحترام الذين يدين به كل فرد للملك بأن نسبت علنا إلى ملك بروسيا خطابا إمتلأ مبالغة وغلا ، وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ما كان يمكن أن يصدر عنه . لا بل إنك جرؤت على نقل

توقيعه كانك رأيته مكتوبا بيدد . وإنى أخبرك يا سيدى أن هذا الخطاب زيف فى باريس ، ومما يحزننى ويمزق قلبى أن المحتال الذى كتبه له شركاء ضالعون معه فى انجلترا . وواجبك نحـــو ملك بروسيا ، ونحو الحقيقة ، ونحوى أيضاً ، يقتضيك أن تنشر خطابى هذا ، الموقع بامضائى ، تصحيحا لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أى مؤامرة خبيثة سخرت لها . وأنى إقدم لك خالص تحيتى .

جان — جاك روسو[١١٦]

وفى وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك « مؤامرة » عليه . فمن غير خصومة القدامى ، فولتير ، وديدرو ، وجريم ، وغيرهم من نجوم التنوير ، يمكن أن يدبروا هذا التغير الفجائى فى لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزء والتحقير ؟ وفى نحو هذه الفترة نشر فولتير « خطابا إلى الدكتور ج . ج . يانسوف ، خفلا من أسمه ، أعاد فيه ذكر الأشارات المؤذية للشعب الانجليزى فى كتابات جان — جاك — كقوله إنهم ليسوا فى الحقيقة أحرارا ، وأنهم شديدو الولع بالمال ، وانهم ليسوا بطبيعتهم طيبين . واعيد نشر أكثر الفقرات ايذاء فى كتيب فولتير فى دورية لندنية تسمى (للويدز ايفننج نيوز[١١٧]) .

وفى ٩ مايو كتب روسو إلى كونواى يطلب اليه وقف المعاش الذى يمنح له مؤقتا . والح عليه هيوم فى قبوله ، فرد عليه روسو بأنه لايستطيع قبول أى امتياز يأتيه من وساطة هيوم . وطالبه هيوم بالتفسير . ويبدو ن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغيظ . فى ١٠ يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثمانى عشرة صفحة من القطع الكبير ، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملا ، ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر ان نتذكر بعض فقراته الرئيسية : « انى مريض يا سيدى ، وليس بى كبير ميل للكتابة ، ولكن بما أنك طلبت التفسير ، فلابد من تقديمه لك . . . .

«انى أعيش خارج العالم ، واجهل الكثير مما يدور فيه . . . ولاأعرف إلاماأشعربه .»

« انك تسألنى فى جرأة من هو الذى يتهمك ؟ انه يا سيدى الرجل الوحيد فى العالم كله الذى . . . أود تصديقه ، انه انت . . . وإذ اشير إلى ديفد هيوم بشخص الغائب ، فانى جاعلك الحكم فيما ينبغى أن يكون رأيى فيه . »

واعترف روسو فى إسهاب بافضال هيوم ، ولكنه ازدف :

«أما إذا تحريت عن الخير الحقيقى الذى صنعته بى ، فان هذه الخدمات ظاهرية أكثر منها جوهرية ، . . فأنا لم أكن نكرة تماما بحيث انى لو وصلت وحيدا ، لما لقيت عونا ولامشورة .. وإذا كان مستر ديفنبورت قد تفضل باعطائى هذا المسكن فهو لم يفعل ذلك لإرضاء مستمر هيوم الذى لم يكن يعرفه . . وكل الخير الذى أصابنى هنا كان يصيبنى بالطريقة ذاتها بدونه (هيوم) ولكل الشر الذى أصابنى ما كان يقع لى . إذ لم يكون لى أعداء فى انجلترا؟وكيف يتم يتفق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء لمستر هيوم ؟

« وقد نمى إلى أيضاً ان ابن المشعوذ ترونشان ، ألد خصومى ، لم يكن فقط صديق مستر هيوم بل محسوبه أيضا ، وانهما يسكنان معا ....

« وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت فى انطباعا جعلنى قلقاً . . . وفى الوقت نفسه لم تصل الخطابات التى كتبتها إلى وجهتها ، وتلك التى تلقيتها كانت مفتوحة ؟ وهذة كلها تناولتها يد مستر هيوم .

« ولكن ما الذى حدث لى حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم منشورا فى الصحف العامة ؟ . . لقد كشف لى شعاع من النور ،سر ما طرأ على اتجاه الشعب البريطانى نحوى من تغير فجائى إلى حد مذهل ؟ ورأيت فى باريس مركز المؤامرة التى تنفذ فى لندن . . فحين نشر هذا الخطاب

المزعوم فى لندن لم ينبس مستر هيوم ببنت شفة ، ولا كتب لى شيئاً ، وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف . . . .

« لم يبق لى غير كلمة واحدة أقولها لك . إن كنت مذنبا فلاتكتب إلى ، إذلا جدوى من الكتابة ، وثق انك لن تخدعنى . ولكن ان كنت برئياً فتضفل بتبرير نفسك . . وإلا فوداعا إلى الأبد[١١٨] » .

وكان رد هيوم موجزا (٢٢ يوليو ١٧٦٦) ولم يجب عن التهم ، لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون . وكتب إلى ديفنبورت يقول ان جاز لى ان ابذل النصح فهو أن تمضى فيما بدأته من حسنة حتى يحبس كلبه فى مستشفى المجاذيب[١١٩] ... فلما سمع ان روسو ندد به فى خطابات أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبوفليه فى ٩ابريل ١٧٦٦)، بعث إلى دبوفليه صورة من خطاب جان — جاك الطويل . فردت على هيوم بما يلى :

« ان خطاب روسو فظيع ، انه مبالغ جدا ولا عذر له فيه اطلاقا ... ولكن لاتحتسبه قادرا على الكذب أو الخداع ، ولا تتصور انه دجال أو وغد، ان غضبه بلا مبرر حق ، ولكنه غضب مخلص ، وليس لدى فى هذا أى شك ...

« واليك ما اتصوره السبب فيه . لقد سمعتهم يقولون ، ولعله أخبر ، انك صاحب عبارة من خير ما ورد فى خطاب مستر ولبول — وانك قلت مازحا وانت تتحدث باسم ملك بروسيا « ان شئت الاضطهاد ، فأنا ملك ، وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأى نوع تريد» وأن مستر ولبول . . . قال انك صاحب هذه العبارة . فان صح هذا ، وعلم به روسو ، فهل تعجب ان يثور سخطه . . . وهو المرهف الحس، الغضوب ، السوداوى المزاج ، المتكبر [١٢٠] .

وفى ٢٦ يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم — دون الإعراب عن أى ندم — فى أمر الخطاب المزيف ، ويدين « قلب روسو

الجحود الشرير»[١٢١] ، ولكنه لم ينكر ان هيوم كان له يد فى الخطاب . وكتب هيوم إلى دولباخ يقول « انك محق تماما ؛ فروسو وحش » . وسحب الكلمات الرقيقة التى وصف بها من قبل خلق روسو [١٢٢] . فلما سمع من ديفنبورت ان جاك ... جاك يكتب «اعترافاته» افترض أن روسو سيذيع رأيه فى الأمر على الملأ . ونصحه آدم سمث ، وطورجو والمرشال كيث ، بأن يتحمل الهجوم صامتا ، ولكن جماعة الفلاسفة فى باريس يقودهم دالامبير ، حرضوه على أن ينشر روايته عن نزاع ذاع خبره فى عاصمتين . وعليه فقد أصدر (اكتوبر ١٧٦٦) عرضا موجزا للنزاع الذى ثار بين السيدين هيوم وروسو ، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار ، وبعد شهر ظهر بالانجليزية . وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع « فى خطاب الاشتراك » الذى كتبه فى ١٥ اكتوبر ، فتردد صدى المشاجرة فى جنيف ، وامستردام ، وبرلين ، وسانت بطرسبورج . وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات ، ونشر ولبول روايته للنزاع ، وهاجم بوزويل ولبول ، ورمت مدام دلاتور فى « مجمل عن مسيو روسو » ، هيوم بأنه خائن ، ووفاه فولتير بمزيد من البيانات عن نقائص روسو وجرائمه ، وعن اختلاله الى أماكن سيئة السمعة ، وعن أعماك التحريض التى أتاها فى سويسره[١٢٣] . أما جورج الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد[١٢٤] . وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة بها إلى المتحف البريطانى [١٢٥]

ووسط هذه الضجة الكبرى لزم روسو الصمت الرهيب . ولكنه صمم الآن على العودة إلى فرنسا أيا كان الخطر والثمن . فقد اكتأب لرطوبة مناخ انجلترا وتحفظ الخلق الانجليزى ، وكانت العزلة التى نشدها فوق ما يطيق ، ولم يكن قد بذل أى جهد فى تعلم الانجليزية فوجد مشقة فى التفاهم مع الخدم . ولم يستطع الحديث إلا مع تريز — التى ما فتئت كل يوم تلح عليه فى أن يأخذها إلى فرنسا . ودعماً لخططها أكدت له ان الخدم يبيتون دس السم له . وعليه فى ٣٠ ابريل كتب إلى مالك بيته النائب يقول :

« غدا أترك بيتك يا سيدى .. ولست اجهل الكمائن التى تدبر لى ، ولا عجزى عن حماية نفسى ، ولكننى عشت يا سيدى ، ولم يبق لى إلا أن أنهى بشجاعة حياة قضيت بشرف . . وداعا سيدى . سآسف دوما على المسكن الذى ابرحه الآن، ولكن أسفى سيكون أكثر لأننى وجدت فيك مضيفا غاية فى اللطف ، ومع ذلك لم استطيع أن اجعل منه صديقا(١٢٦) .

وفى أول ما يوفر مع تريز على عجل وفى رعب . وتركا حقائبهما ومالا للوفاء بإيجار ثلاثة عشر شهرا . . ولجهلهما بجغرافية انجلترا استقلا مختلف وسائل الانتقال غير المباشرة، وقطعا شطرا من الطريق على الإقدام ، وظلا عشرة أيام تائهين لايعرف أحد مستقرهما . وأعلنت الصحف عن اختفائهما، ثم ظهرا فى ١١ مايو فى سبولدنج يلنكولنشير ، ومنها وجدا طريقهما إلى دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه فى ٢٢ مايو . بعد أن قضيا فى انجلترا ستة عشر شهرا ؛ وكتب هيوم إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالبا اليهم أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذى عاد الآن وحيدا مهجوراً إلى فرنسا، وهو من الناحية القانونية لايزال تحت طائلة الأمر باعتقاله .

* * *

المراجع

CHAPTER I

1. Rousseau, *The Confessions of Jean-Jacques Rousseau*, I, 22.
2. *Ibid.*, 4.
3. I, 156-57; II, 70, 321.
4. Saintsbury, *History of the French Novel*, I, 391.
5. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 174.
6. Lanson, G., *Histoire de la littérature française*, 801.
7. *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 587a.
8. Rousseau, *The Confessions*, I, 3.
9. *Ibid.*, 8.
10. 9.
11. 11.
12. 13.
13. 9.
14. 16.
15. 22.
16. 41.
17. 44.
18. *Ibid.*; Lemaitre, *Jean-Jacques Rousseau*, 290; Mann, Thomas, *Three Essays*, 156.
19. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, I, 51 f.
20. Rousseau, *The Confessions*, I, 69.
21. Rousseau, *Les Confessions*, I, 140.
22. *The Confessions*, I, 117-19.
23. *Ibid.*, 76.
24. 76.
25. 106.
26. 91.
27. 92.
28. 96.
29. 104.
30. 107.
31. 116.
32. 122.
33. 130.
34. 154.
35. 138.
36. 148.
37. 160.
38. 178.
39. *Les Confessions*, I, 238.
40. *Ibid.*; *The Confessions*, I, 178.
41. *Ibid.*, 124.
42. 195.
43. Josephson, *J.-J. Rousseau*, 111.
44. *Ibid.*, 113-14.
45. *The Confessions*, I, 247, 250.
46. *Ibid.*, 259.
47. 262.
48. 265.
49. *Ibid.*
50. 296.
51. 295.
52. 300.
53. Josephson, 132.
54. *Ibid.*, 133.
55. *The Confessions*, I, 305.
56. Letter of Frederick, 1762, in Gooch, *Frederick the Great*, 145.
57. *The Confessions*, I, 309.
58. *Ibid.*, 310.
59. *Ibid.*, II, 139.
60. Martin, Henri, *Histoire de France*, XVI, 83; Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 209.
61. Josephson, 140.
62. Morley, John, *Rousseau and His Era*, I, 127; Hendel, C. W., *Citizen of Geneva*, 208.
63. Diderot, *Essai sur les règnes de Claude et Néron*, Ch. 67.
64. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
65. *The Confessions*, II, 21.
66. *Ibid.*, 32.
67. Rousseau, *Discourse on Arts and Sciences*, in *Social Contract and Discourses*, 130.
68. *Ibid.*, 132.
69. 134.
70. 134.
71. 146.
72. 151.
73. 142.
74. 151.
75. 135.
76. 139.
77. 153.
78. 153.
79. Rousseau, preface to *Narcisse*.
80. Michelet, *Histoire de France*, V, 371.
81. Grimm, *Correspondance littéraire*, IX, 49.
82. Bayle, Pierre, *Réponse aux questions d'un provincial*.
83. Rousseau, *Reveries of a Solitary*, Book VI, pp. 127-32.
84. *The Confessions*, II, 21.
85. Lemaitre, 92.
86. Letter of July 15, 1756, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 142.
87. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
88. *The Confessions*, II, 34.
89. *Ibid.*, 48.
90. 49.
91. 51.
92. 56; Goncourt, E. and J. de, *Madame de Pompadour*, 143.
93. Faguet, *Rousseau artiste*, 192.
94. Grimm, II, 307.

95. Rousseau, *Reveries*, 111.
96. In Faguet, *Rousseau artiste*, 193.
97. Musée, St.-Quentin.
98. Levey, Michael, *Painting in 18th-Century Venice*, 155.
99. Marmontel, *Memoirs*, I, 169.
100. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, II, 52.
101. *Ibid.*; Masson, *La Religion de Rousseau*, I, 184-85.
102. Preface to *Narcisse*.
103. Masson, I, 182.
104. Michelet, *Histoire de France*, V, 428.
105. *The Confessions*, II, 63.
106. *Ibid.*, 58.
107. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, in *Social Contract* . . . , 157.
108. *Ibid.*, 159.
109. 160.
110. 239.
111. Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, 129.
112. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, *loc. cit.*, 181.
113. *Ibid.*, 169.
114. 175.
115. 222.
116. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. ii.
117. Second *Discourse*, in *Social Contract* . . . , 214.
118. *Ibid.*, 207.
119. 220-22.
120. 238.
121. 242-44.
122. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, in Cassirer, *The Question of Rousseau*, 54.
123. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 236.
124. End of second *Discourse*.
125. Mumford, Lewis, *The Condition of Man*, 275.
126. Helvétius, *Treatise on Man*, II, xx.
127. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 11.
128. Lemaitre, 122.
129. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 175, 246.
130. Voltaire, *Works*, XXIa, 227-30.
131. *Ibid.*
132. *The Confessions*, II, 65.
133. *Social Contract*, 271.
134. *Ibid.*, 272.
135. 281.
136. 269.
137. 262.
138. 253.
139. 260.
140. 256.
141. *The Confessions*, II, 40.
142. *Ibid.*
143. Masson, I, 181.
144. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 181.
145. *The Confessions*, II, 40.
146. Grimm, *Correspondence*, II, 239.
147. Sainte-Beuve, II, 195n.
148. *Ibid.*, 180.
149. 191.
150. 213.
151. Morley, *Rousseau*, I, 272.
152. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 83.
153. Source lost.
154. Toth, Karl, *Woman and Rococo in France*.
155. Hobbes, *De Corpore*, Ch. xxv.
156. Toth, 194; Josephson, 194; Faguet (*Vie de Rousseau*, 214) thought Mme. d'Épinay had been infected by Dupin de Francueil.
157. Épinay, II, 85.
158. *Ibid.*, 130.
159. Josephson, 149.
160. *The Confessions*, II, 81.
161. *Ibid.*, 66.
162. Letter to Malesherbes, Jan. 26, 1762.
163. Épinay, II, 128; Sainte-Beuve, II, 187; Morley, *Rousseau*, I, 274.

CHAPTER II

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 4.
2. Frederick the Great, *Histoire de la guerre de Sept Ans*, 388.
3. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 306.
4. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 74.
5. Aldis, Janet, *Madame Geoffrin*, 200.
6. Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 113.
7. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 346.
8. Walpole, H., *Memoirs of . . . the Reign of George the Second*, II, 73; Marmontel, *Memoirs*, I, 175.
9. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, V, 72.
10. Levron, Jacques, *Pompadour*, 174.
11. Treitschke, H. von, *Life of Frederick the Great*, 149.
12. Mann, Thos., *Three Essays*, 163.
13. Dorn, *Competition for Empire*, 15.
14. Treitschke, *Frederick*, 181.
15. Carlyle, *Friedrich*, V, 263-69; Martin, H., *Histoire de France*, XV, 497; Reddaway, *Frederick the Great*, 198; Coxe, *History of . . . Austria*, III, 370.
16. Reddaway, 199.
17. Gooch, G. P., *Frederick the Great*, 334.
18. Reddaway, 201.
19. Dorn, 300; *Cambridge Modern History*, VI, 251.
20. Gooch, *Frederick*, 334.
21. *CMH*, VI, 402.
22. Coxe, *History of . . . Austria*, III, 369.
23. *Ibid.*
24. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 33.
25. Gooch, *Frederick*, 43.

16. Coxe, 379.
17. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 369; Carlyle, *Friedrich*, V, 479.
18. *Ibid.*, 523.
19. 527.
30. 534; Sainte-Beuve, II, 373
31. *Ibid.*, I, 219; Brandes, *Voltaire*, II, 77.
32. Sainte-Beuve, II, 372.
33. Martin, H., *France*, XV, 522.
34. Micheler, *Histoire de France*, V, 402.
35. Dorn, 323.
36. Micheler, V, 402.
37. Carlyle, VI, 22.
38. *Ibid.*, V, 547.
39. Jahn, *Life of Mozart*, I, 47.
40. Carlyle, VI, 42; Robinson, J. H., *Readings in Etropeam History*, 395.
41. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II. 173.
42. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 297.
43. Carlyle, VI, 63.
44. Martin, XV, 527.
45. *Ibid.*, 528.
46. Carlyle, VI, 63.
47. Dorn, 338.
48. Carlyle, VI, 115.
49. *CMH*, VI, 290.
50. Wilhelmine, *Memoirs*, vii.
51. *Ibid.*, *ix.*
52. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 44.
53. Carlyle, VI, 265.
54. Coxe, *History*, III, 407.
55. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 259.
56. Carlyle, VI, 322, 386.
57. Martin, XV, 533.
58. Dorn, 363.
59. Voltaire and Frederick, *Letters*, 262; Carlyle, VI, 399.
60. Martin, XV, 565.
61. Voltaire and Frederick, *Letters*, 271.
62. Coxe, III, 425.
63. Dec. 25, 1761, by the Russian calendar.
64. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 229.
65. *Ibid.*, 227.
66. 295.
67. Gooch, *Frederick*, 64.
68. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 305.
69. Macaulay, *Essays*, II, 185.
70. Voltaire and Frederick, *Letters*, 245; Mann, *Three Essays*, 210.
71. Gooch, *Frederick*, 64.
72. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.

CHAPTER III

1. Du Hausset, *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 97.
2. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 338-42.
3. *Ibid.*, 200.
4. Aldis, *Madame Geoffrin*, 129.
5. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42.
6. Goncourts, *Mme. de Pompadour*, 317.
7. *Ibid.*, 319; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 451.
8. Mitford, Nancy, *Madame de Pompadour*, 234.
9. Levron, Jacques, *Pompadour*, 260.
10. Bancroft, George, *Literary and Historical Miscellanies*, 91.
11. See Stryienski, *Eighteenth Century*, 189.
12. Mitford, *Pompadour*, 234.
13. Ercole, Lucienne, *Gay Court Life*, 236.
14. Mitford, 234-35.
15. Taine, H., *Ancient Regime*, 338.
16. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 181-82; Martin, H., *France*, XVI, 236.
17. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 253.
18. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 213.
19. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 54.
20. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 135.
21. Du Hausset, *Memoirs*, 27.
22. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 352.
23. Rousseau, *La Nouvelle Héloïse*, in Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 193.
24. Parton, James, *Life of Voltaire*, II, 329.
25. Voltaire, *Works*, VIIb, 56.
26. Goldoni, *Memoirs*, 359.
27. Taine, *Ancient Regime*, 308.
28. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 61.
29. Ducros, *French Society*, 325.
30. Martin, H., *France*, XVI, 163; Acton, *Lectures on Modern History*, 326.
31. Higgs, Henry, *The Physiocrats*, 18.
32. Say, Léon, *Turgot*, 47, 67.
33. Turgot, *Éloge de Gournai*, in Martin, *France*, XVI, 165.
34. Mirabeau *père* in Higgs, 21
35. Higgs, 24.
36. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the 18th Century*, 730.
37. Higgs, 37.
38. Warwick, C. F., *Mirabeau and the French Revolution*, 146.
39. Higgs, 68.
40. In Sée, Henri, *Les Idées politiques en France au xviii^e siècle*, 161.
41. Pomeau, René, *La Religion de Voltaire*, 405.
42. Hume, letter to Morellet, July 10, 1769.
43. Voltaire, *Works*, Ib, 247-48, 265.
44. In Gay, Peter, *Voltaire's Politics*, 169n.
45. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, Book IV, Ch. ix.
46. Higgs, 135.

4. Besterman in Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 9.
5. Chaponnière, 203.
6. Parton, II, 475.
7. Letter of July 4, 1782, in Desnoiresterres, *Voltaire*, VI, 288.
8. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 283.
9. *Ibid.*, 293.
10. 302.
11. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 144.
12. Desnoiresterres, VI, 290; Chaponnière, 202.
13. Parton, *Life of Voltaire*, II, 481.
14. *Ibid.*
15. Desnoiresterres, I, 131.
16. Noyes, A., *Voltaire*, 550.
17. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 189.
18. Desnoiresterres, VII, 335.
19. *Ibid.*, 335.
20. Parton, II, 480.
21. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Malady—Medicine."
22. Molière, *Le Malade imaginaire*.
23. Chaponnière, 202; Parton, II, 480.
24. Voltaire, art. "Malady."
25. Parton, I, 529.
26. Chaponnière, 202.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 312.
28. Parton, II, 263.
29. Desnoiresterres, V, 324.
30. Parton, II, 471.
31. Chaponnière, 202.
32. Lanson, *Voltaire*, 197.
33. Desnoiresterres, VII, 482.
34. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 201.
35. Faguet, *Literary History of France*, 507.
36. Lanson, *Voltaire*, 197.
37. Torrey, 34.
38. Lanson, 197.
39. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXXIX, 546.
40. *Works*, VIIIb, 286.
41. *Philosophical Dictionary*, art. "Ancients and Moderns."
42. Michelet, *Histoire*, V, 426.
43. Parton, II, 489.
44. Brunetière, 361.
45. Torrey, 176.
46. Letter of Mar. 12, 1766.
47. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, Ch. xxxix.
48. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 335.
49. Letter of Frederick to Voltaire, June 10, 1759.
50. Letter of July 2, 1759.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 266.
52. *Ibid.*, 358.
53. 363.
54. Brandes, II, 241.
55. Desnoiresterres, VI, 391.
56. *Phil. Dict.*, art. "Peter the Great."
57. Robespierre, speech of 18 Floréal, Year II, in Hazard, *European Thought*, 265.
58. Parton, II, 260.
59. Chaponnière, 238.
60. Gibbon, *Memoirs*, 154n.
61. Parton, II, 556.
62. Voltaire, *Mémoires*, in Parton, I, 141.
63. Letter to Frederick, January, 1737, in Voltaire and Frederick, 41.
64. *Phil. Dict.*, art. "Property."
65. *Ibid.*
66. *Ibid.*
67. Letter to Dr. Daquir in Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 228.
68. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
69. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 47.
70. *Phil. Dict.*, art. "Country" ("Pays").
71. Voltaire, *L'A, B, C*, in Sée, *Les Idées politiques*, 84.
72. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
73. *Essai sur les moeurs, xii*, 161, in Gay, *Voltaire's Politics*, 181.
74. *Mérope*, Act. II, Sc. ii.
75. Michelet, *French Revolution*, 47.
76. In Parton, II, 544.
77. Desnoiresterres, VI, 240.
78. Casanova, *Memoirs*, II, 406-7.
79. Letter of Oct. 28, 1773.
80. *Phil. Dict.*, art. "Democracy."
81. Letter of Sept. 20, 1760.
82. In Gay, 236.
83. *Phil. Dict.*, art. "Government," Sec. 3.
84. *Ibid.*, Sec. 6, slightly transposed.
85. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
86. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 415.
87. Quoted in Black, *Art of History*, 48.
88. *Phil. Dict.*, art. "Law, Civil and Ecclesiastical."
89. In Hearnshaw, *Social . . . Ideas of Some Great French Thinkers*, 157.
90. Art. "Execution."
91. Art. "Torture."
92. In Gay, 307.
93. Art. "Wit."
94. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 146.
95. *Ibid.*, 228.
96. Black, 29.
97. *Candide*, last chapter.
98. In Pomeau, 261.
99. Desnoiresterres, V, 24.
100. Brandes, *Voltaire*, I, 118.
101. Torrey, 10.
102. Letter of Aug. 28, 1751.
103. Brandes, *Creative Spirits of the 19th Century*, 138.
104. *Ibid.*, 142; Höffding, H., *Jean Jacques Rousseau and His Philosophy*, 80; Desnoiresterres, VI, 310.
105. *Ibid.*
106. Mme. de Graffigny in Parton, I, 392.

NOTES

107. Hume, letter of Apr. 26, 1764, in Gay, 81.
108. Torrey, 131.
109. Letter to Thieriot, Dec. 10, 1738.
110. Torrey, 131.
111. *Ibid.*
112. Voltaire, *English Notebooks*, in Gay, 353.
113. *Phil. Dict.*, art. "Solomon."
114. Desnoiresterres, V, 157; Parton I, 106.
115. See letter of March, 1737, to Moussinot, in *Works*, XXIa, 190.
116. Parton, II, 520.
117. *Ibid.*, I, 507.
118. *Ibid.*, 144.
119. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 96.
120. Parton, II, 600.
121. In Noyes, *Voltaire*, 536.
122. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 61.
123. Pomeau, 462.
124. Desnoiresterres, II, 239.
125. In Torrey, 197.
126. Desnoiresterres, VI, 287.
127. Torrey, 91.

CHAPTER VI

1. Rousseau, *Émile*, p. 371.
2. *The Confessions*, II, 84.
3. Josephson, 190.
4. *Ibid.*; *The Confessions*, II, 84.
5. *The Confessions*, II, 88.
6. Diderot, *Le Fils naturel*, Act. IV, Sc. iii.
7. Brockway, W., and Winer, B., *Second Treasury of the World's Great Letters*, 195.
8. *Ibid.*, 201.
9. *The Confessions*, II, 107.
10. *Ibid.*, 99.
11. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, I, 424.
12. *Ibid.*, I, 428.
13. 431.
14. 438.
15. 442.
16. 449.
17. 443.
18. Desnoiresterres, V, 141.
19. *The Confessions*, II, 105.
20. Epinay, Mme. d', *Memoirs*, II, 329.
21. *Ibid.*, 334.
22. *The Confessions*, II, 102.
23. Josephson, 213.
24. *The Confessions*, II, 114-15, 110.
25. *Ibid.*, 113.
26. 114-16.
27. Josephson, 220.
28. *The Confessions*, II, 118.
29. *Ibid.*, 121.
30. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 193.
31. *The Confessions*, II, 133. Several of Mme. d'Houdetot's letters to Rousseau survive, and a few of his to her; see Martin, H., *France*, XVI, 91n.
32. *The Confessions*, II, 136.
33. Sainte-Beuve, II, 213.
34. *The Confessions*, II, 144.
35. *Ibid.*, 146.
36. 147.
37. Epinay, III, 130-32; Josephson, 249.
38. Epinay, III, 140-42.
39. *Ibid.*, 186.
40. *The Confessions*, II, 154.
41. Josephson, 252.
42. *The Confessions*, II, 155.
43. Letter of Nov. 26, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 160.
44. Lemaitre, *Rousseau*, 174.
45. Josephson, 308.
46. *The Confessions*, II, 165.
47. Rousseau, *Politics and the Arts*, 7.
48. *Ibid.*, 121.
49. 125-26.
50. *The Confessions*, II, 165.
51. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 97, 105.
52. Hendel, *Citizen of Geneva*, 169; Desnoiresterres, VI, 85.
53. Chaponnière, 169; Josephson, 278.
54. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
55. Josephson, 279.
56. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, Part I, Letter I.
57. Letter II.
58. Letter IV.
59. Letter V.
60. Letter XIV.
61. *Rousseau juge*, p. 139.
62. *Ibid.*, Part IV, Letter XVII.
63. Part V, Letter V.
64. *Rousseau juge*, p. 186.
65. *Ibid.*, Part V, Letter X.
66. *The Confessions*, II, 163.
67. In Hendel, *J.-J. Rousseau, Moralist*, II, 47.
68. *Rousseau juge*, Part VI, Letter VI.
69. Part V, Letter V.
70. *The Confessions*, I, 101.
71. Kant, Fragment 618, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 6.
72. Texte, J., *Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 236.
73. Desnoiresterres, VI, 87.
74. Michelet, *Histoire*, V, 427.
75. *Ibid.*
76. *The Confessions*, II, 213.
77. *Ibid.*, 211.
78. Maritain, *Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau*, 119.
79. Taine, *Ancient Regime*, 271.

CHAPTER VII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 179.
2. *Ibid.*, 195.

3. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. v.
4. *Ibid.*, IV, ii.
5. IV, i.
6. I, vii.
7. I, viii.
8. I, vii.
9. II, iv.
10. I, viii.
11. Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, I, 81.
12. *Social Contract*, Book III, Ch. v.
13. III, iv.
14. III, xv.
15. III, xviii.
16. III, i.
17. I, ix.
18. II, xi.
19. I, end.
20. II, i.
21. Letter to Mme. d'Étang, in Cobban, *Rousseau and the Modern State*, 193.
22. Cobban, *Rousseau*, 211.
23. *Social Contract*, IV, viii.
24. II, vii.
25. IV, viii.
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*
28. *Ibid.*
29. *Ibid.*
30. IV, vi.
31. In Cobban, *Rousseau*, 55.
32. *Émile*, p. 157.
33. *Ibid.*
34. Cobban, *In Search of Humanity*, 168.
35. Voltaire, *Works*, XXIb, 332.
36. Havens, *Voltaire's Marginalia*, 68, in Gay, *Voltaire's Politics*, 268.
37. *Cf. Social Contract*, II, iv; Talman, *Origins of Totalitarian Democracy*; Crocker, *Rousseau et la philosophie politique*, p. 111.
38. *Social Contract*, II, v.
39. Faguet, *Rousseau penseur*, 397.
40. *Ibid.*
41. *Émile*, preface.
42. Boyd, *Educational Theory of Jean Jacques Rousseau*, 297.
43. Rousseau, *Émile*, 13.
44. *Ibid.*, 216.
45. 26.
46. 256.
47. 118.
48. 133.
49. 27.
50. 92.
51. 50.
52. 21-22, 46.
53. 56-58.
54. 341.
55. 253.
56. 251.
57. 254.
58. 53.
59. 58.
60. 167.
61. 149, 306.
62. 160.
63. Martin, H., *France*, XVI, 98.
64. Rousseau, *Émile*, 158.
65. *Ibid.*, 220.
66. 230.
67. 261-62.
68. 263.
69. 257.
70. 272.
71. 232.
72. *Ibid.*
73. 238-49.
74. 245-47.
75. Letter of Oct. 5, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 152.
76. *Émile*, 261.
77. 223.
78. 275.
79. See Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 256.
80. *Émile*, 272.
81. 271-72.
82. 179.
83. 192.
84. 298-99.
85. Letter of Nov. 5, 1758, in Hendel, *Citizen*, 158.
86. In Faguet, *Rousseau penseur*, 111.
87. Émile, 351; Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 23.
88. *Émile*, 330, 370.
89. 340.
90. 341, 371.
91. 337, 350.
92. 350.
93. 349.
94. 320.
95. 357.
96. 443.
97. 444.
98. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 125.
99. Seillière, *J. J. Rousseau*, 132, in Maritain, *Three Reformers*, 125.
100. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, IXb, 157.
101. Plato, *Republic*, No. 592.

CHAPTER VIII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 232.
2. *The Confessions*, II, 243.
3. *Collection complète*, IXa, pp. *v-x*.
4. *The Confessions*, II, 253.
5. *Collection*, IXb, 4.
6. *The Confessions*, II, 255.
7. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 110.
8. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
9. Voltaire, letter of July 26, 1764.

10. In Brandes, *Voltaire*, II, 97.
11. *Ibid.*, 98; Desnoiresterres, VI, 320-23.
12. Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 252.
13. *The Confessions*, II, 257.
14. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 226.
15. In Gooch, *Frederick the Great*, 138.
16. *The Confessions*, II, 264.
17. Hendel, *Citizen of Geneva*, 252.
18. *The Confessions*, II, 265.
19. *Ibid.*, 259.
20. 270.
21. 265-66.
22. Letter of July 22, 1764, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 171.
23. In Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 287.
24. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 138.
25. Masson, III, 73-75.
26. 2 Timothy iii, 1 f.
27. *Collection complète*, IXa, pp. *xi-xiii*.
28. *Ibid.*, p. *xiii*.
29. P. *xiv*.
30. P. *xvi*.
31. P. *xxxix*.
32. P. 1.
33. 2.
34. 4.
35. 7.
36. 8.
37. 26-28.
38. 55.
39. 63.
40. 65-66.
41. 70-71.
42. 121-22.
43. 8.
44. 15.
45. 42.
46. 44.
47. 47.
48. 50.
49. 83.
50. 86.
51. 87-89.
52. Exodus vii, 9-12.
53. Matthew xxiv, 24.
54. *Collection complète*, IXa, 201-2.
55. *Ibid.*, 210-12.
56. 244-45.
57. 334.
58. Letter of Mar. 8, 1765, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 206-7.
59. *Collection complète*, IXa, 184-85.
60. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 97.
61. In Faguet, *Vie de Rousseau*, 318-20.
62. *Rousseau juge de J.-J.*, I, *ii-iv*.
63. Grimm, *Correspondance*, May 15, 1763, Dec. 15, 1763, Jan. 15, 1765; see also Masson, P. M., II, 126-40.
64. Boileaux-Despréaux, Nicolas, *L'Art poétique*, lines 37-38.
65. Goethe, *Faust*, Part I, Everyman's Library translation, p. 116.
66. *Collection complète*, I, 196n.
67. Horace Walpole, letter of Dec. 31, 1769, to Horace Mann.
68. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switz.*, 150.
69. *Ibid.*, 215.
70. 217.
71. 219.
72. 229.
73. 230-31.
74. 254.
75. 258-68.
76. In Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, II, 293.
77. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 118.
78. Vaughn, II, 369n.
79. *Ibid.*, 350.
80. 338.
81. Letter of Feb. 26, 1770.
82. Morley, *Rousseau and His Era*, II, 94.
83. Letter of Mar. 10, 1765.
84. Letter of Mar. 29, 1765.
85. Macdonald, F., II, 123.
86. *The Confessions*, II, 301.
87. *Ibid.*
88. Letter of Oct. 1, 1765.
89. *The Confessions*, II, 302.
90. *Ibid.*
91. Rousseau, *Reveries*, 106.
92. *Ibid.*, 108; *cf. The Confessions*, 308.
93. Morley, *Rousseau*, II, 117.
94. *The Confessions*, II, 312.
95. Hendel, *Citizen of Geneva*, 326.
96. Burton, *Life of David Hume*, II, 299.
97. Macdonald, F., II, 166.
98. *Ibid.*, 213-14.
99. Walpole, Letter of Jan. 12, 1766.
100. Macdonald, II, 168.
101. Lemaitre, 322; Macdonald, II, 172.
102. *Ibid.*, II, 171.
103. Morellet, *Mémoires*, in Mossner, *Life of Hume*, 575.
104. *Ibid.*, 517.
105. 518.
106. Faguet, *Vie de Rousseau*, 332.
107. In Burton, *Hume*, II, 304, 309.
108. Hume, letter to Lord Charlemont, in Mossner, 523.
109. Mossner, 519.
110. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica, France*, 279.
111. But summarized by Col. Robert Isham, who read them before their destruction by the executors.
112. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . .*, 277-81.
113. Mossner, 521.

114. *Ibid.*, 523.
115. Letter of May 10, 1766, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 336.
116. Letter of Apr. 24, 1766, in Hendel.
117. Josephson, 460.
118. Macdonald, F., II, 186-209.
119. Mossner, 529.
120. Macdonald, II, 171.
121. *Ibid.*, 174.
122. Josephson, 464; Morley, *Rousseau*, II, 133.
123. Josephson, 467.
124. Morley, II, 135.
125. *Ibid.*
126. Josephson, 471.
127. Faguet, *Vie de Rousseau*, 361; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 203.

Obeikandl.com